الإسلام والمرأة

في رأي الإمام محمد عبده

الدكتور محمد عمارة

الرشاد

مركز المرأة للدراسات والاستشارات
ت : ٢٤٤٦٠٢٢
ت.ف : ٢٤٤٦٠٣٣
ترخيص رقم : (٧١)

٢١٠١٤
ع م م

الإسلام والمرأة

في رأي الإمام محمد عبده

الناشر : دار الرشاد

العنوان : ١٤ شارع جواد حسنى . القاهرة

تليفون : ٢٩٩٢٦١٥ . ٣٩٣٤٦٠٥

رقم الإيداع : ٢٨٣٣ / ٩٧

الترقيم الدولى : 977 - 5324 - 38 - 6

طبع : عربية للطباعة والنشر

العنوان : ٧ ، ١٠ ش السلام . أرض اللواء . المهندسين

تليفون : ٣٠٣٦٠٩٨ . ٣٠٣١٠٤٣

مكتب الجمع : آرمس للكمبيوتر

العنوان : ٣٢ ش على عبد اللطيف . مجلس الشعب

تليفون : ٣٥٦٤٤٠٤

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الخامسة : ١٤١٧هـ ١٩٩٧م . الأولى للدار

خطوط الغلاف : محمد حمام

تصميم الغلاف : محمد فايد

الإسلام والمرأة

فى رأى الإمام محمد عبده

الدكتور محمد عمارة

دار الرشاد

هذه الطبعة الجديدة

بعض الناس يشككون فى أن للمرأة المسلمة والشرقية « قضية » تعانى من آثارها السلبية .. الأمر الذى يستوجب النضال لتحريرها من هذه السلبيات !.

لكن الأدلة كثيرة على وجود هذه « القضية » .. ومن ثم فلا بد من عرض « واقع » حياة المرأة ومكانها فى المجتمع على المبادئ الأصيلة والجوهرية فى الإسلام ، الذى يمثل المحور الأول والمكون الأساسى لقسمات حضارتنا العربية الإسلامية .. تلك الحضارة التى لابد لتطور المرأة فى مجتمعاتنا أن يكون محكوماً بما بها من قيم أصيلة وسمات تمتاز بها عن غيرها من الحضارات ..

بل إن واحداً من الأدلة على وجود « قضية » للمرأة فى مجتمعاتنا المسلمة والشرقية هو الاستقبال الذى استقبل به القراء والباحثون طبعات هذا الكتاب؟! ..

ففى سنة ١٩٧٥م صدرت طبعته الأولى .. فنفدت آلاف نسخها السبعة فى وقت قصير ! ..

وفى سنة ١٩٧٩م صدرت طبعته الثانية .. فنفدت آلاف نسخها الإحدى عشرة فى أيام ؟! .

وكذلك كـان الحال مع طبـعتى ١٩٨٠م و ١٩٨٥م فكان ذلك الاسـتقـبال واحداً من الأدلة على أن للقضـية التى يعالجها هذا الكتاب مكانـاً حساساً فى وجدان الأمة ، وعلى أنهـا إحدى « المشكلات » التى تطلب الحل الذى يسهم فى ترقـى المجتمـع وتحـرير الإنسانة فـيه .. كـجزء من تحـرير الأمـة . رجالاً ونساءً .. !

لكن هناك الكثـير من الدراسـات التى تعـالج قضـية المرأة ، بل وتعـرض لموقف « الإسلام » من هذه القضية .. ومع ذلك فهى لا تحظى بما حظى به هذا الكتاب من استـقبال طيب ، ولافت للنظر ، من الباحـثين والقراء ؟! .. وهنا تأتى خصوصية الفكر الذى يقدمه هذا الكتاب ! ..

فليسـت « البدع » و « الخـرافـات » و « الإضافـات » التى تراكـمت على الفكر الإسـلامى فى عـصـور الانحطاط المظلـمة ، والتـى حسبـهـا البعض «إسلامـاً» أو من « الإسلام » على حـين هى فكر « عـصر الحريم » .. لـيست تلك « البدع والخـرافات والإضافات » هو مـا يقدمه هذا الكتاب ، زاعـماً أنه رأى الإسلام فى قضية المرأة ! ..

وليسـت تصورات أسلاف مـضوا لعـصور مـضت هو ما يخلع علـيه هذا الكتاب قدسية الإسلام ، الصالح لكل زمان ومكان ! ..

وإنما هو رأى مـدرسة التـجديد الإسـلامى الحديثـة ، المسلحة بالعـقلانـية المستنيرة ، عندما تبحث فى أصول الفكر الإسلامى الجوهرية والنقية عن مكان

المرأة من الرجل ، ومركزها فى المجتمع .. هو ما يقدمه للباحثين والقراء هذا الكتاب ! ..

فهو صفحة من صفحات الاجتهاد الإسلامى الحديث ، فى قضية تشغل عقل الأمة ووجدانها ، وتمس الحياة الخاصة والعامة لكل إنسانة وإنسان !

ولتلك الميزة التى يمتاز بها على كثير من الدراسات الإسلامية التى تتناول موضوعه .. كان الاستقبال المتميز الذى حظى به من الباحثين والقراء .

ولذلك - أيضاً - كانت تلك الطبعة الجديدة - والمزيدة - التى نقدمها ، آملين لها أن تواصل الإسهام بالتنوير الإسلامى فى قضية محورية تشغل حيزاً كبيراً من اهتمامات الإنسان العربى والمسلم والشرقى فى العصر الذى نعيش فيه .

دكتور

محمد عمارة

إهـــداء

قد تـتعـدد الآراء وتختلف الاجـتهـادات حول العـلاج الأنسب لما تعانيـه الأسرة المصرية والمسلمـة والشرقية من أمراض ، ومـا فى قوانينها من نواقـص وثغـرات ..

ولكن الآراء تتلاقى ، والاجتهادات تتفق على أن هناك الكثير الذى تعانى منه هذه الأسرة ، وعلى ضرورة التـعديل والتغيير والتطوير لما يحكـم حياتها من تشريعات .

وقد تختلف الآراء بصدد الحكم على « قيمة » و « أهمية » و « موضوعية» ما تطرحـه الدوائر الفكرية المتعددة فى هذا الميدان مـن اجتهادات وتفـسيرات ومقترحات ..

ولكن جمـيع الآراء تتلاقى وكل دوائر الـفكر تجمع على أن فكر الأسـتاذ الإمام الشيخ محـمد عبده قد كان ـ ولا يزال فى عصـرنا الحديث ـ أهم جهد فى الاجـتهـاد الإسلامى لأعـظم عقل إسـلامى وقف أمـام كتـاب الله وسنة رسـوله ﷺ كى يرى فـيهـمـا ـ بعـقل المسلم المسـتنير ـ الـعلاج لأمـراض مجتمعاتنا المعاصرة ، وأمراض الحياة الأسرية بالذات .

فإلى الذين يؤمنون بأننا بإزاء « مشكلة » ، لابد لها من « حل » ..

وإلى الحريصين على نفى تهمة التخلف والجمود عن شريعة الإسلام ..

وإلى الذين يبحثون عن المعنى الحقيقى لصلاحية الشرع الإسلامى للتطور مع الزمان والمكان ..

وقبل كل هؤلاء :

إلى الأسرة المصرية والمسلمة والشرقية نقدم رأى الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فى « الزواج والطلاق .. وتعدد الزوجات » .

★ ★ ★

كلمـات

الأمة تتكون من البيوت (العائلات) . فصلاحها صلاحها .. ومن لم يكن له بيت لا تكون له أمة ..

الرجل والمرأة متـماثلان فى الحقوق والأعـمال ، كمـا أنهما متـماثلان فى الذات والشعور والعقل ..

ولا ريب فى جـواز إبطال عـادة تعـدد الزوجـات ؛ لأن شرط التـعـدد هو التحـقق من العدل .. وهذا الشـرط مفقـود حتـماً .. فيـجوز للحـاكم ولعالم الدين الحجـر على الأزواج عموماً أن يتـزوجوا غير واحدة إلا لضـرورة تثبت لدى القاضى ..

لا مانع من ذلك فى الدين البتة ، وإنما الذى يمنع ذلك هو العادة فقط ..

ولا سبيل إلى تربية أمة فشا فيها تعدد الزوجات !! ..

واعلمـوا : أن الرجـال الذين يحـاولون بظلم النسـاء أن يكونوا سـادة فى بيوتهم إنما يلدون عبيداً لغيرهم ؟! .

محمد عبده

تمهيد

على امتداد الرقعة الواسعة للعالمين العربى والإسلامى إذا ما ذكر لقب : (الأستاذ الإمام) دون تعيين لواحد محدد ، انصرفت كل الأذهان إلى الشيخ محمد عبده (١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م) يحدث ذلك فى جميع الدوائر الفكرية ومعظم الأوساط المذهبية المنتشرة فى بلاد المسلمين . والذين اقتربوا كثيراً من فكر الرجل وتراثه ، وعقدوا المقارنات بين الإضافات التى قدمها للفكر الإسلامى وبين إضافات غيره من الذين عاصروه أو أتوا من بعده يقطعون أنه أهم عقل إسلامى وقف أمام القرآن والسنة فى عصرنا الحديث ، وأبرز من نستطيع أن نطلق عليهم لقب (المجتهد) منذ أن خلعت هذه الأمة عن كاهلها رداء العصور الوسطى على يد جمال الدين الأفغانى (١٨٣٨ ـ ١٨٩٧م) حتى الآن .

ولقد كانت للرجل نظرة شاملة لميادين الإصلاح التى رأى أن خوضها ضرورى لبعث حضارة العرب والمسلمين من جديد ، فكتب فى السياسة بمزاج خاص ومنطق متميز .. وتحدث عن التعليم حديثاً مفصلاً ، ووضع لمستوياته المختلفة اللوائح والمواد والقوانين .. وخص الأزهر وإصلاحه بعناية ملحوظة .. ووضع لائحة « قانونية ـ اجتماعية » لإصلاح القضاء .. ودرس مشاكل الأوقاف والمساجد ، بعقاراتها وأعيانها والبشر العاملين فيها ، وقدم

لكل ذلك المقترحات .. إلى آخر الميادين العديدة التي يثبت اهتمامه بها وجود النظرة الشاملة والمتكاملة عنده فيما يتعلق بالنهضة والإصلاح[1] ..

ولقد كانت قضية الأسرة فى بلاد الشرق ، وفى مصر بالذات ، من أهم القضايا التى شغلت الرجل فأعطاها الكثير من اهتمامه : حتى لقد أفرد لبحث مشكلاتها ، وتشخيص عيوبها واقتراح طرق الإصلاح لها العديد من الآثار الفكرية التى أبدعها على امتداد حياته الفكرية التى امتدت لأكثر من ربع قرن. فلقد كتب فى (الوقائع المصرية) سنة ١٨٨١م عن (حاجة الإنسان إلى الزواج) ، وعن (حكم الشريعة فى تعدد الزوجات) .. وعندما تولى منصب « مفتى الديار المصرية » سنة ١٨٩٩م تناول قضايا الأسرة فى عدد من الفتاوى من أبرزها تلك الفتوى التى قدم فيها دراسة كاملة لموضوع تعدد الزوجات .. وفى العمل الفكرى الذى ختم به حياته ـ وهو تفسيره للقرآن ـ وقف وقفة المجتهد أمام آيات الزواج ، والطلاق ، وتعدد الزوجات .. فقدم رؤية إسلامية جديدة لهذه النصوص ، وصاغ أفكاراً حول بعضها أحياناً إلى مواد قانونية .. أخذت ببعضها دول إسلامية ، وتخلفت عنها دول .. وإن كان العالم الإسلامى لا يزال ـ فى مجموعه ـ متخلفاً حتى اليوم عن الموقف المتقدم والمستنير الذى وقفه الأستاذ الإمام من قضايا الأسرة عموماً وبالذات قضايا : العلاقة بين الرجل والمرأة ، والطلاق ، وتعدد الزوجات .

---

(١) انظر الدراسة الشاملة التي قدمناها عن فكره السياسي والاجتماعي في تقديمنا لأعماله الكاملة ج١ ص٩ ـ ٢٧٥ . طبعة القاهرة سنة ١٩٩٣م .

ويعطى لفكر الرجل فى هذا الحقل أهميته وأبعاده أنه لم ينظر إلى هذه القضايا والمشكلات نظرة جزئية تعزلها عن قضية الإصلاح العامة لعموم الأمة وإنما نظر إلى الأسرة كلبنة فى بنيان الأمة ، لابد من مداواة جراحها إذا شئنا بنياناً قوميًا ينهض برسالته ويتحدى ما يحدق به من أخطار ، فهو يتحدث عن أن « الأمة تتألف من البيوت (العائلات) فصلاحها صلاحها ، ومن لم يكن له بيت لا تكون له أمة ؛ وذلك أن عاطفة التراحم وداعية التعاون إنما تكونان على أشدهما وأكملهما فى الفطرة بين الوالدين والأولاد ، ثم بين سائر الأقربين ، فمن فسدت فطرته لا خير فيه لأهله ، فأى خير يرجى منه للبعداء والأبعدين ؟ ومن لا خير فيه للناس لا يصلح أن يكون جزءاً من بنية أمة ؛ لأنه لم تنفع فيه اللحمة النسبية ـ التى هى أقوى لحمة طبيعية تصل بين الناس ـ فأى لحمة بعدها تصله بغير الأهل فتجعله جزءاً منهم ، يسره ما يسرهم ويؤلمه ما يؤلمهم ، ويرى منفعتهم عين منفعته ومضرتهم عين مضرته ، وهو ما يجب على كل شخص لأمته ؟؟[1] » .

ولم تكن دراسة الأستاذ الإمام لعيوب الأسرة الشرقية والمسلمة دراسة نظرية تأملية فقط ، بل لقد استندت نظرته التأملية إلى دراسة للواقع ، استخدم فيها الإحصاء والرصد للظواهر فى بعض الأحيان ، وهو يشير إلى ذلك فى معرض حديثه عن التربية فى مصر عندما يقول : « لقد استنتجت بالاستقراء منذ كنت قاضياً فى إحدى المحاكم الجزئية أن نحو ٧٥ فى المائة

(١) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده . دراسة وتحقيق : د. محمد عمارة ج٤ ص٢٢٥ ، ٢٢٦ . المؤسسة العربية للدراسات والنشر . بيروت سنة ١٩٧٢ .

من القضايا بين الأقارب بعضهم مع بعض .. فهل من المعقول أن يكون الفساد فى العلائق الطبيعية إلى هذا الحد من التصرم ؟! ونتساءل عن تصرم العلائق الوطنية ؟! هل يمكن بعد أن تفقد الروابط الضرورية بين العائلات أن نبحث الروابط للجامعة الكبرى ؟! أو ليس هذا كمن يطلب الثمر من أغصان الشجر بعدما جذ أصولها وجذورها ، وقطع أوصال عروقها ، وغادرها قطع أخشاب يابسة » ؟!! .

ومن هنا كان تعبيره عن التفكك والتفسخ الذى أصاب الأسرة المصرية تعبير خبير باحث ، وهو التعبير الذى أفاض الحديث عنه كثيراً ، والذى نقدم له نموذجاً فى عبارته التى تقول : « إن الروابط الطبيعية فى الزواج والصهر وسائر أنواع القرابة صارت فى مصر أَرَثَّ وأضعف منها فى سائر البلاد ، فمن نظر فى أحوالهم وتبين ما يجرى بين الأزواج من المخاصمات والمنازعات والمضارات ، وما يكيد بعضهم لبعض يخيل إليه أنهم ليسوا من أهل القرآن ، بل يجدهم كأنهم لا شريعة لهم ولا دين ، بل آلهتهم أهواؤهم ، وشريعتهم شهواتهم ، وأن حال المماكسة بين التجار فى السلع هى أحفظ وأضبط من حال الزواج ، وأقوى فى الصلة من روابط الأزواج ![١] » .

والأمر الجدير بالملاحظة أن الأستاذ الإمام لم يلق تبعة هذا التفسخ العائلى والتحلل فى الروابط الأسرية على عاتق المرأة ، ولم يحملها ـ كما كان يصنع غيره ـ مسئولية ذلك وحدها ، لأنها « تثير الفتنة وتبحث عن الشهوة » .. لم

---

(١) المصدر السابق . نفس الجزء . ص٦٧٧ .

يصنع ذلك .. بل نراه يحمل الرجل القسط الأكبر من مسئولية الإغراق فى الجرى وراء الشهوات ، فيقول : « لقد زعم بعض الناس .. أن النساء أشد شهوة من الرجال .. ومنهم من قدر هذه الشدة والزيادة بأضعاف كثيرة حدها وعدَّها عداً ، وهذا من نبذ الأقوال وطرحها بغير بينة ولا علم ؛ فإن الرجال كانوا وما زالوا هم الذين يطلبون النساء ويرغبون فيهن ، ثم يظلمونهن حتى بالتحكم فى طباعهن والحكم على شعورهن ، ويأخذ بعضهم ذلك من بعض بالتسليم والتقليد .. »(١) .

لم يقف الأستاذ الإمام هذا الموقف السطحى من المشكلة ، وإنما شخص الداء ، وحدد أن العلة كامنة فى الفهم الخاطئ لموقف الشريعة من علاقة الرجل بالمرأة ومن العلاقات الأسرية ، ومن سيادة ذلك التطبيق الذى يحسبه الناس إسلاماً أو مستمداً من الإسلام ، بينما هو غريب كل الغربة عن حقيقة تعاليم الإسلام .. فهو يرى أن نظرة الرجل إلى المرأة ، كما هى فى الواقع ، وكما تحددها بعض القوانين التى تنظم علاقتها ، إنما تعد عودة إلى ذلك الموقف الجاهلى الذى جاء الإسلام فحرر المرأة منه وأعطاها من الحقوق مثل ما للرجل ، فيقول : « لقد كان الناس ـ لجهلهم بوجوه المصالح الاجتماعية على كمالها ـ لا يرون للنساء شأناً فى صلاح حياتهم الاجتماعية وفسادها ، حتى علمهم الوحى ذلك ، ولكن الناس لا يأخذون من الوحى فى كل زمان إلا بقدر استعدادهم ، وإن ما جاء به القرآن من الأحكام لإصلاح حال البيوت

---

(١) المصدر السابق . نفس الجزء . ص٦٢٧ .

ـ (العائلات) ـ بحسن معاملة النساء لم تعمل به الأمة على وجه الكمال ، بل نسيت معظمه فى هذا الزمان ، وعادت إلى جهالة الجاهلية »[1] ـ « ومن تدبر هذه الآيات وفهم هذه الأحكام يتجلى له نسبة مسلمى هذا العصر إلى القرآن ومبلغ حظهم من الإسلام ..»[2] .

أما رأى الأستاذ الإمام فى الموقف الإسلامى الحقيقى من قضايا الأسرة وعلاقات الرجل بالمرأة فلقد قدمه فى آثاره الفكرية التى عرض فيها ـ إجمالاً أو تفصيلاً ـ لموقف الشريعة من هذه القضايا الثلاث :

أولاً : علاقة الرجل بالمرأة ، وطبيعة الرابطة الزوجية ، وموضوع المساواة بين الجنسين .

ثانياً : موقف الشريعة من الطلاق ، وخاصة تقييد حق الطلاق لتلافى المضار المترتبة عليه .

ثالثاً : موقف الشريعة والاجتهاد الإسلامى الحديث من موضوع تعدد الزوجات .

★ ★ ★

---

(١) المصدر السابق . نفس الجزء . ص٦٥٤ .

(٢) المصدر السابق . نفس الجزء ، ص٦٧٧ .

المساواة بين الرجل والمرأة

عالج الأستاذ الإمام علاقات الزوج بالزوجة انطلاقاً من وجهة النظر التى ترى أن الإسلام قد ساوى بين الرجل والمرأة فى الحقوق والواجبات مساواة حقيقية ، بكل ما تحمله كلمة « المساواة » من معان ، ويجب أن توضع هذه المساواة فى التطبيق بمقتضى العرف الذى يتحدد بدرجة التطور التى وصلها المجتمع الذى يعيش فيه المسلمون .

وهو يعرض لهذه القضية فى تفسيره لآيات القرآن التى تحدثت عنها أو أشارت إليها ، كما يعرض للآيات التى جعلت للرجال فضلاً على النساء وقدمتهم عليهن درجة ، وجعلتهم قوامين عليهن .. يعرض لذلك فيقدم لنا رؤية جديدة حقاً ، وإضافة لفكر المجتهدين المسلمين فى العصر الحديث .

وهو يرى أن هذه المساواة التى قررها القرآن بين الرجل والمرأة إنما هى عودة بالمجتمع - وأيضاً ارتقاء به - إلى الفطرة السليمة التى جعلها الخالق «ميثاقاً » بين الجنسين ، بسببه تترك المرأة أهلها وذويها لتضع نفسها فى أحضان إنسان جديد وغريب ، فتعطيه ما لم تعطه لأحد من الأهل الذين نشأت وترعرعت فى أحضانهم .. فالمساواة عودة إلى الأصل الفطرى ، يرتقى بها الإنسان فوق الثمار المرة التى صنعها استبداد الأقوياء بالضعفاء عبر مسيرة تطور الإنسان ..

يرى الأستاذ الإمام أن القرآن قد أجمل الحديث عن مساواة المرأة للرجل في قوله : ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾[1] فيتحدث عن تفسير هذه الكلمات القرآنية قائلاً : « هذه كلمة جليلة جداً ، جمعت - على إيجازها - ما لا يؤدى بالتفصيل إلا فى سفر كبير ، فهى قاعدة كلية ناطقة بأن المرأة مساوية للرجل فى جميع الحقوق إلا أمراً واحداً عبر عنه بقوله : ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ - وسيأتى بيانه - وقد أحال فى معرفة ما لهن وما عليهن على المعروف بين الناس فى معاشراتهم ومعاملاتهم فى أهليهم . وما يجرى عليه عرف الناس هو تابع لشرائعهم وعقائدهم وآدابهم وعاداتهم ... فهذه الجملة تعطى الرجل ميزاناً يزن به معاملته لزوجه فى جميع الشئون والأحوال ، فإذا هم بمطالبتها بأمر من الأمور يتذكر أنه يجب عليه مثله بإزائه ، ولهذا قال ابن عباس - ﷺ - : إننى لأتزين لامرأتى كما تتزين لى ، لهذه الآية .. وليس المراد بالمثل المثل بأعيان الأشياء وأشخاصها ، وإنما المراد أن الحقوق بينهما متبادلة ، وأنهما أكفاء ، فما من عمل تعمله المرأة للرجل إلا وللرجل عمل يقابله لها ، إن لم يكن مثله فى شخصه فهو مثل له فى جنسه ؛ فهما متماثلان فى الحقوق والأعمال ، كما أنهما متماثلان فى الذات والإحساس والشعور والعقل ، أى أن كلا منهما بشر تام له عقل يتفكر فى مصالحه ، وقلب يحب ما يلائمه ويسر به ، ويكره ما لا يلائمه وينفر منه ، فليس من العدل أن يتحكم أحد الصنفين بالآخر ويتخذه عبداً يستذله ويستخدمه فى مصالحه ، ولا سيما بعد عقد الزوجية والدخول فى الحياة

---

(١) البقرة : ٢٢٨ .

المشتركة التي لا تكون سعيدة إلا باحترام كل من الزوجين للآخر والقيام بحقوقه » .

ثم يستطرد الأستاذ الإمام ليفسر لنا معنى « الدرجة » التي فضل الله بها الرجال على النساء ، فنجدها عنده تعني القيادة التي لابد منها لأي مجتمع ، صغيراً أم كبيراً ، أسرة أم قرية أم مدينة أم أمة ، والتي هي ضرورة من ضرورات توزيع العمل بين البشر ، فيقول : « وأما قوله تعالى : ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ فهو يوجب على المرأة شيئاً وعلى الرجال أشياء ؛ ذلك أن هذه الدرجة هي درجة الرياسة والقيام على المصالح المفسرة بقوله تعالى : ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ فالحياة الزوجية حياة اجتماعية ، ولابد لكل اجتماع من رئيس ؛ لأن المجتمعين لابد أن تختلف آراؤهم ورغباتهم في بعض الأمور ، ولا تقوم مصلحتهم إلا إذا كان لهم رئيس يرجع إلى رأيه في الخلاف ؛ لئلا يعمل كل على ضد الآخر فتنفصم عروة الوحدة الجامعة ويختل النظام ، والرجل أحق بالرياسة لأنه أعلم بالمصلحة ، وأقدر على التنفيذ بقوته وماله ، ومن ثم كان هو المطالب شرعاً بحماية المرأة والنفقة عليها ، وكانت هي مطالبة بطاعته في المعروف »[1] .

فإذا ما عرض الأستاذ الإمام لتفسير معنى قوله تعالى : ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ ﴾ وجدناه يعيد نفس المعنى : معنى أن « القيام » هو :

---

(١) المصدر السابق . نفس الجزء . ص ٦٣٠ ـ ٦٣٥ .

« الرياسة » . ولكنه يقدم لنا إضافة على جانب كبير جداً من الأهمية ، وذلك عندما يحدثنا عن أن المؤهلات « الفطرية والكسبية » التى تميز الرجل عن المرأة والتى تجعل له الحق فى التأديب ـ الذى هو من مهام الرياسة ـ دونها ، إذا تحصلت للمرأة هذه المؤهلات فلا معنى لحصر هذا الحق من حقوق « الرياسة» فيه دونها .

وبمعنى أكثر دقة وجرأة ووضوحاً : إن الأستاذ الإمام يقسم النساء إلى قسمين: قسم لم تصل به المدارك والقدرات إلى الدرجة المطلوبة ، فلا بد من تقرير حق الرجل هذا بالنسبة لهن ، وقسم بلغت بهن المدارك والقدرات إلى الدرجة المرغوبة ، ومثلهن لا سبيل للرجال عليهن فى هذا المجال .. أما نص كلماته فتقول : إن « المراد بالقيام هنا هو الرياسة التى يتصرف فيها المرءوس بإرادته واختياره ، وليس معناها أن يكون المرءوس مقهوراً مسلوب الإرادة لا يعمل عملاً إلا ما يوجهه إليه رئيسه ، فإن كون الشخص قيماً على آخر هو عبارة عن إرشاده والمراقبة عليه فى تنفيذ ما يرشده إليه ، أى ملاحظته فى أعماله وتربيته ..

إن المرأة من الرجل والرجل من المرأة بمنزلة الأعضاء من بدن الشخص الواحد ، فالرجل بمنزلة الرأس ، والمرأة بمنزلة البدن » .

ثم يتحدث الأستاذ الإمام عن قول الله سبحانه : ﴿ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ . وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ ﴾ .. إلخ الآية . فيقول : إن فى ذلك تقسيماً

للنساء إلى قسمين ، فالصالحات « ليس للرجال عليهن شيء من سلطان التأديب ، وإنما سلطانهم على القسم الثانى الذى بينه وبين حكمه بقوله عز وجل : ﴿ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ ﴾ .. » أى خروجهن عن العرف والمألوف » .. كما يقرر أن القرآن الكريم قد استخدم من وسائل التعبير ما يدل على أن «نشوز » المرأة هو أمر عارض وليس أصيلاً فيها ، وأنه ليس القاعدة ، بل الشذوذ ، فيقول : « إن الله تعالى لما كان يحب أن تكون المعيشة بين الزوجين معيشة محبة ومودة وتراض والتئام لم يشأ أن يسند النشوز إلى النساء إسناداً يدل على أن من شأنه أن يقع منهن فعلاً ، بل عبر عن ذلك بعبارة تومئ إلى أن من شأنه ألا يقع ؛ لأنه خروج عن الأصل الذى يقوم به نظام الفطرة ، وتطيب به المعيشة ، ففى هذا التعبير تنبيه لطيف إلى مكانة المرأة وما هو الأولى فى شأنها ، وإلى ما يجب على الرجل من السياسة لها وحسن التلطف فى معاملتها » .

ثم تقدم الأستاذ الإمام خطوة أبعد فى هذا المجال فقرر أن سلطة الرجل هذه إنما هى موجهة للمرأة « الناشز » أما غيرها فلا سلطة للرجل عليها ، حتى سلطة الموعظة .. قال : « إن القانتات لا سبيل عليهن حتى فى الوعظ والنصح، فضلاً عن الهجر والضرب » لأنه لا مبرر لهذه السلطة ولا داعى لذلك السلطان ، فهى ليست سلطة نابعة من كون الرجل رجلاً والمرأة امرأة ، وإنما من الضرورة التى تقتضيها طبيعة تقسيم العمل على ضوء الواقع والميراث التاريخى الذى ميز الرجل ـ فى مجموع جنسه ـ على المرأة ـ فى مجموع جنسها ـ فى بعض الصفات الفطرية والمكتسبة .

ثم يشير إلى دلالة قول الله سبحانه فى ختام الآية : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾ فيقول : « أتى بهذا بعد النهى عن البغى لأن الرجل إنما يبغى على المرأة بما يحسه فى نفسه من الاستعلاء عليها ، وكونه أكبر منها وأقدر ، فذكره تعالى بعلوه وكبريائه وقدرته عليه ليتعظ ويخشع ويتقى الله فيها . واعلموا أن الرجال الذين يحاولون بظلم النساء أن يكونوا سادة فى بيوتهم إنما يلدون عبيداً لغيرهم[1] !! » .

وانطلاقاً من هذا المفهوم الذى ساوى بين المرأة والرجل يقرر الأستاذ الإمام ضرورة تعليم المرأة ، لا أمور البيت فحسب ، بل وكل ما هو ضرورى ولازم لنهضة « الأمة والملة » لا على أنه مجرد حق للمرأة ، بل على أنه واجب عليها وواجب على الرجل أن ييسره لها ، فيقول : إنه « إذا كان الله قد جعل للنساء على الرجال مثل ما لهم عليهن ـ إلا ما ميزهم به من الرياسة ـ فالواجب على الرجال بمقتضى كفالة الرياسة أن يعلموهن ما يمكنهن من القيام بحقوقهن ويسهل طريقه ، فإن الإنسان ـ بحكم الطبع ـ يحترم من يراه مؤدياً عالماً بما يجب عليه عاملاً به ، ولا يسهل عليه أن يمتهنه أو يهينه ، وإن بدرت منه بادرة فى حقه رجع على نفسه بالملامة ، فكان زاجراً له عن مثلها .

خاطب الله تعالى النساء بالإيمان والمعرفة والأعمال الصالحة ، فى العبادات والمعاملات ، كما خاطب الرجال ، وجعل لهن عليهم مثل ما جعله لهم عليهن ، وقرن أسماءهن بأسمائهم فى آيات كثيرة ، وبايع النبى ﷺ

---

(١) المصدر السابق . ج ٥ ص ٢٠٨ ـ ٢١١ .

المؤمنات كما بايع المؤمنين ، وأمرهن بتعلم الكتاب والحكمة كما أمرهم ، وأجمعت الأمة على ما مضى به الكتاب والسنة من أنهن مجزيات على أعمالهن فى الدنيا والآخرة .

أفيجوز بعد هذا كله أن يحرمن من العلم بما عليهن من الواجبات والحقوق لربهن ولبعولتهن ولأولادهن ولذى القربى وللأمة والملة ؟! .. العلم الإجمالى بما يطلب فعله شرط فى توجه النفس إليه ؛ إذ يستحيل أن تتوجه إلى المجهول المطلق ، والعلم التفصيلى به المبين لفائدة فعله ومضرة تركه يعد مسبباً للعناية بفعله والتوقى من إهماله ، فكيف يمكن للنساء أن يؤدين تلك الواجبات والحقوق مع الجهل بها إجمالاً وتفصيلاً ؟! وكيف تسعد فى الدنيا أو الآخرة أمة نصفها كالبهائم لا يؤدى ما يجب عليه لربه ولا لنفسه ولا لأهله ولا للناس ؟! والنصف الآخر قريب من ذلك ؛ لأنه لا يؤدى إلا قليلاً مما يجب عليه من ذلك ويترك الباقى ، ومنه إعانة ذلك النصف الضعيف على القيام بما يجب عليه من علم وعمل ، أو إلزامه إياه بما له عليه من السلطة والرياسة ؟! » .

وفى قضية تعلم المرأة يثير الأستاذ الإمام قضية لا أعتقد أن أحداً من مفكرى الأديان عموماً قد سبقه إليها .. إذ الشائع بين أمثال هؤلاء المفكرين أنهم يركزون على ضرورة تعليم المرأة أمور دينها أولاً وقبل كل شئ ، ثم بعضاً من أمور الدنيا ، يتفاوتون فى تحديد مقداره ومداه .. أما الأستاذ الإمام فإنه يقول لنا إن نطاق التعليم الدينى للمرأة هو نطاق محدود ، أما آفاق

تعلمها لعلوم الدنيا فإنها آفاق بلا حدود؟! ونص عبارته يقول : « إن ما يجب أن تعلمه المرأة من عقائد دينها وآدابه وعبادته محدود ، ولكن ما يطلب منها لنظام بيتها وتربية أولادها ونحو ذلك من أمور الدنيا ، كأحكام المعاملات .. يختلف باختلاف الزمان والمكان والأحوال ، كما يختلف بحسب ذلك الواجب على الرجال .. فالآية تدل على اعتبار العرف فى حقوق كل من الزوجين على الآخر ، والعرف يختلف باختلاف الناس والأزمنة »[1] .

ولقد سبق وأشرنا إلى أن الأستاذ الإمام قد رأى فى هذه المساواة بين المرأة والرجل التطبيق العملى لذلك « الميثاق » الفطرى الذى عقدته الفطرة على الرجل وأعطته للمرأة ، وهو يتحدث عن هذا « الميثاق » فى تفسيره لقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً ﴾ ، فيقول : « إن هذا الميثاق الذى أخذه النساء من الرجال لابد أن يكون مناسباً لشئون الفطرة السليمة ، وهو ما أشارت إليه الآية الكريمة ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾[2] فهذه آية من آيات الفطرة الإلهية هى أقوى ما تعتمد عليه المرأة فى ترك أبويها وإخوتها وسائر أهلها ، والرضا بالاتصال برجل غريب عنها ، تساهمه السراء والضراء، فمن آيات الله تعالى فى هذا الإنسان أن تقبل المرأة بالانفصال من أهلها ذوى الغيرة عليها لأجل الاتصال بالغريب ، تكون زوجاً له ويكون

---

(١) المصدر السابق جـ ٤ ، ص ٦٣١ ـ ٦٣٢ .

(٢) الروم : ٢١ .

زوجاً لها ، تسكن إليه ويسكن إليهـا ، ويكون بينهما من المودة والرحمة أقوى من كل مـا يكون بين ذوى القـربى . فكأنه يقـول : إن المرأة لا تقـدم على الزوجية ، وترضى بأن تترك جميع أنصارها وأحبائهـا لأجل زوجها إلا وهى واثقـة بأن تكون صلتهـا به أقوى من كل صلة ، وعـيشـتهـا معـه أهنأ من كل عيشـة، وهذا ميثاق فطرى من أغلظ المواثيق وأشدها إحكامـاً ، وإنما يفقه هذا المعنى الإنسان الذى يحس إحساس الإنسان . فليـتأمل تلك الحالة التى ينشئها الله تعالى بين الرجل وامرأته يجد أن المرأة أضعف من الرجل وأنها تقبل عليه وتسلم نفسـها إليه مع علمـها بأنه قادر على هضم حـقوقهـا ، فعلى أى شئ تعتمد فى هذا الإقبال والتسليم ؟ ومـا هو الضمان الذى تأخذه عليه ، والميثاق الذى تواثقـه به ؟ ماذا يقع فى نفـس المرأة إذا قيل لهـا : إنك ستكونين زوجـاً لفلان ؟ إن أول شئ يخطر فى بالها عند سماع مثل هذا القول أو التفكير فيه ـ وإن لم تسأل عنه ـ هو أنها ستكون عنده على حال أفـضل من حالها عند أبيها وأمهـا ، وما ذلك إلا لشئ استـقر فى فطرتها ـ وراء الشـهوة ـ ذلك الشئ هو عقل إلهى وشعور فطرى أودع فـيها ميلاً إلى صلة مخصـوصة لم تعهدها من قبل ، وثقة مخصوصة لا تجـدها فى أحد من الأهل ، وحنواً مخصوصاً لا تجد له موضعاً إلا البعل ، فمجموع ذلك هو الميثاق الغليظ الذى أخذته من الرجل بمقـتـضى نظام الـفطرة الذى يوثق به مـا لا يوثق بالكـلام الموثق بالعـهـود والأيمـان، وبه تعتـقد المرأة أنهـا بالزواج قد أقبلت على سعـادة ليس وراءها سعادة فى هذه الحياة ، وإن لم تر من رضـيت به زوجاً ، ولم تسمع له من قبل كلامـاً . فهـذا ما عـلمنا الله تعالى إياه ، وذكـرنا به ـ وهو مركـوز فى أعـماق

نفوسنا ـ بقوله : « إن النساء قد أخذن من الرجال بالزواج ميثاقاً غليظاً » فما هى قيمة من لا يفى بهذا الميثاق ، وما هى مكانته من الإنسانية؟!»[1].

نعم .. بهذا الأفق المستنير نظر الأستاذ الإمام إلى آيات القرآن التى تحدثت أو أشارت إلى علاقة الرجل بالمرأة، ومن هذا المنطلق الفكرى حدد أن مساواة القرآن بين الرجل والمرأة « تعد ركناً من أركان الإصلاح فى البشر » وبنصوصه الكثيرة التى تناثرت فى آثاره الفكرية صاغ أكثر محاولات الاجتهاد الإسلامى الحديث تقدماً فى هذا المجال .

***

(١) المصدر السابق ، جـ ٥ ، ص ١٩٣ ـ ١٩٤ .

الطـلاق
بيـن الإطلاق والتقييـد

لم يقف الأستاذ الإمام عند الحدود التى وقف عندها أغلب الذين راموا الإصلاح فى هذا الميدان عندما اكتفوا بإيراد الحديث النبوى القائل : «**إن أبغض الحلال إلى الله الطلاق**»(١) ذلك أن هذا الحديث لا يؤدى إلى أكثر من جعل الطلاق وفصم عرى الحياة الزوجية أمراً مكروهاً وبغيضاً عند الله ، فهو يكره إلى الناس ـ وبالذات الرجل ـ استخدام هذا « الحق » « المباح » ولكنه لا «يقيده » .. وما كان يبحث عنه الأستاذ الإمام ، ويرى فيه العلاج ، هو : «تقييد» الطلاق .. والتقدم خطوة أبعد من جعل هذا « الحق » مطلقاً وغير محدد بغير إرادة الفرد مالك عصمة الحياة الزوجية ، التقدم خطوة تجعل استخدام هذا « الحق » من اختصاص « القاضى » ، وذلك عن طريق تطبيق ما جاء فى القرآن الكريم خاصاً « بالتحكيم » فى النزاع الذى يهدد بالطلاق ، إذا اعترى هذا النزاع علاقة الأزواج .

وكما هى عادة الأستاذ الإمام فلقد انطلق يبحث عن اجتهاد إسلامى يعالج هذه المشكلة بعد أن لمس ـ كباحث اجتماعى ـ مدى الظلم الذى يوقعه انتشار الطلاق فى حياة الأسر والعائلات ، ومن ثم حياة الأمة جمعاء ، والرجل

---

(١) رواه أبو داود وابن ماجة .

يتحدث عن هذا الظلم فيراه شر أنواع الظلم التي يوقعها إنسان بإنسان ، فيقول : « إن ظلم الأزواج للأزواج أعرق في الإفساد وأعجل في الإهلاك من ظلم الأمير للرعية ، إن رابطة الزوجية أمتن الروابط وأحكمها فتلا في الفطرة، فإذا فسدت الفطرة فساداً انتكث به هذا الفتل ، وانقطع هذا الحبل ، فأي رجاء في الأمة بعده يمنع عنها غضب الله وسخطه ؟! ثم إن هذا الظلم للنفس يؤدي إلى الشقاء في الآخرة ، كما أنه مشق بطبيعته في الدنيا . وقد بلغ التراخي والانفصام في رابطة الزوجية لعهدنا هذا مبلغاً لم يعهد في عصر من العصور الإسلامية ، فأسرف الرجال في الطلاق ، وكثر نشوز النساء وافتداؤهن من الرجال بالخلع ـ (دفع المال مقابل الطلاق) ـ لفساد الفطرة في الزوجين ، واعتداء حدود الله من الجانبين »[1] .

وفي تفسير الأستاذ الإمام لقول الله سبحانه : ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾[2] يعلل لماذا قال الله ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا﴾ ولم يقل «فإذا طلقها » فيقول : إنه سبحانه وتعالى « عبر عن الطلقة الثالثة بإن » دون «إذا » للإشعار بأنها لا ينبغي أن تقع مطلقاً ـ (أي لا ينبغي أن تفصم عرى الزوجية بالطلاق) ـ كأنه تعالى لا يرضى أن يتجاوز الطلاق مرتين (أي لا يرضى أن يتجاوز الطلاق الرجعي إلى الطلاق البائن) .

وهذه الآيات التي وردت في القرآن خاصة بموضوع الطلاق ، يقرر

---

(١) المصدر السابق . ج٤ ، ص٦٤١ .

(٢) البقرة : ٢٣٠ .

الأستاذ الإمام أن الخطاب فيها موجه إلى مجموع الأمة ، لا للفرد المكلف وحده ، ومن ثم فإن الدولة ـ الممثلة لمجموع الأمة ـ مطالبة بالتدخل والقيام على تنفيذ وتطبيق هذه الوصايا والأحكام . ففى تفسيره لقول الله سبحانه : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَن لاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ﴾(١) يقول الأستاذ الإمام : « إن الخطاب فى مثل هذا للأمة ، لأنها متكافلة فى المصالح العامة ، وأولو الأمر هم المطالبون أولاً وبالذات بالقيام بالمصالح ، والحكام منهم وسائر الناس رقباء عليهم »(٢) . وفى تفسيره لقول الله سبحانه : ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ يقول : إن الخطاب للأمة ، أنها متكافلة فى المصالح العامة على حسب الشريعة .. يأخذ كل واحد حظه من الخطاب للمجموع .. والحكمة فى هذا الخطاب العام هنا أن يعلم المسلمون أنه يجب على من علم منهم بوقوع المنكر من أولياء النساء أو غيرهم أن ينهوه عن ذلك حتى يفئ إلى أمر الله ، وأنهم إذا سكتوا عن المنكر ورضوا به يأثمون ، والسر فى تكافل الأمة أن الأفراد إذا وكلوا إلى أنفسهم فكثيراً ما يرجحون أهواءهم وشهواتهم على الحق والمصلحة ، ثم يقتدى بعضهم ببعض مع عدم النكير فيكثر الشر والمنكر فى الأمة فتهلك ، ففى التكافل والتعاون على إزالة المنكر دفاع عن الأمة ، ولكل مكلف حق فى ذلك ؛ لأن البلاء إذا وقع فإنه يصيبه سهم منه . قال تعالى : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى

---

(١) من الآية ٢٢٩ البقرة .

(٢) المصدر السابق ، نفس الجزء . ص٦٣٩ .

ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩)﴾[١].

فالأمة بأسرها ـ وفى مقدمتها الدولة الممثلة لأفرادها ـ مخاطبة بهذه الوصايا والأحكام، ومطالبة بالتدخل والقيام على التنفيذ، وهذا يعنى أن أمور الطلاق ليست « مسألة خاصة » بالرجل، ولا هى شأن من شئون الأسرة وحدها.

أما الحديث الذى تناول به الأستاذ الإمام موضوع « تقييد » الطلاق بشكل صريح ومباشر وحاسم، فلقد جاء فى تفسيره لآية النساء ٣٥ التى يقول فيها الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا (٣٥) ﴾.. يقول الأستاذ الإمام: « الخطاب للمؤمنين، ولا يتأتى أن يكلف كل واحد أو كل جماعة منهم ذلك، ولذلك قال بعض المفسرين: إن الخطاب هنا موجه إلى من يمكنه القيام بهذا العمل ممن يمثل المسلمين ـ وهم الحكام ـ وقال بعضهم: إن الخطاب عام ويدخل فيه الزوجان وأقاربهما، فإن قام به الزوجان أو ذوو القربى أو الجيران فذاك، وإلا وجب على من بلغه أمرهما من المسلمين أن يسعى فى إصلاح ذات بينهما بذلك (أى بالتحكيم)، ويعلق الأستاذ الإمام على هذين الرأيين فيقول: « وكلا القولين وجيه، فالأول

---

(١) المصدر السابق ـ نفس الجزء، ص٦٥١، ٦٥٢.
والآيتان: ٧٨، ٧٩ المائدة.

يكلف الحكام ملاحظة أحوال العامة والاجتهاد فى إصلاح أحوالهم ، والثانى يكلف المسلمين أن يلاحظ بعضهم شئون بعض ويعينه على ما تحسن به حاله .. وقوله : ﴿ إِن يُرِيدَآ إِصْلَاحاً يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَآ ﴾ يشعر أنه يجب على الحكمين ألا يدخرا وسعاً فى الإصلاح ، كأنه يقول : إن صحت إرادتهما فالتوفيق كائن لا محالة ، وهذا يدل على نهاية العناية من الله تعالى فى إحكام نظام البيوت الذى لا قيمة له عند المسلمين فى هذا الزمان . وانظروا كيف لم يذكر مقابل التوفيق بينهما ، وهو التفريق عند تعينه ، لم يذكره حتى لا يذكِّر به ؛ لأنه يبغضه ، وليشعر النفوس أنه ليس من شأنه أن يقع . وظاهر الأمر أن هذا التحكيم واجب » .

وبعد أن قرر الأستاذ الإمام « وجوب » التحكيم ، وضرورة تنظيمه ، وأن الخطاب فى ذلك عام يشمل الدولة التى لا يمكن تنظيم التحكيم دون تدخل منها ، بعد ذلك أخذ ينعى على المسلمين اختلافهم حول التحكيم ، هل هو «واجب » أم « مندوب » ؟ ونسيانهم تطبيقه ، حتى ولو كان مندوباً ، وما ترتب على هذا الإهمال من شيوع الفساد والانحلال فى العلاقات الأسرية والمجتمعات ، يقول : « .. لكنهم اختلفوا فيه ، قال بعضهم : إنه واجب ، وبعضهم : إنه مندوب . واشتغلوا بالخلاف فيه عن العمل به ؛ لأن عنايتنا بالدين صارت محصورة فى الخلاف والجدل ، وتعصب كل طائفة من المسلمين لقول واحد من المختلفين ، مع عدم العناية بالعمل به ، فها هم أولاء قد أهملوا هذه الوصية الجليلة ، لا يعمل بها أحد على أنها واجبة ولا على أنها مندوبة . والبيوت يدب فيها الفساد ، فيفتك بالأخلاق والآداب ، ويسرى

من الوالدين إلى الأولاد . ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً ﴾ أى أنه كان فيما شرعه لكم من هذا الحكم عليماً بأحوال العباد وأخلاقهم وما يصلح لهم ، خبيراً بما يقع بينهم وبأسبابه الظاهرة والباطنة ، فلا يخفى عليه شئ من وسائل الإصلاح بينهما ، وإنى لأكاد أبصر الآية الحكيمة تومئ بالاسمين الكريمين ـ (العليم والخبير) ـ إلى أن كثيراً من الخلاف يقع بين الزوجين فيظن أنه مما يتعذر تلافيه هو فى الواقع ونفس الأمر ناشئ عن سوء التفاهم لأسباب عارضة ، لا عن تباين فى الطباع أو عداوة راسخة ، وما كان كذلك يسهل على الحكمين الخبيرين بدخائل الزوجين ـ لقربهما منهما ـ أن يمحصا ما علق من أسبابه فى قلوبهما ، متى حسنت النية وصحت الإرادة »(١) .

ولقد أتيحت للأستاذ الإمام الفرصة أن يقدم فكره هذا حول « التحكيم » فى صورة صياغات قانونية تقيد مرادها الإباحة التى جرت إلى الفوضى والفساد فى هذا الميدان .. فلقد استشارته الحكومة فى بعض الحالات التى تعرض للزوجة ، فتطلب فيها الطلاق ، فصاغ قانوناً وضع به سلطة الطلاق بيد القاضى فى عدد من الحالات ، وجعل من بين هذه الحالات : حالة وقوع الضرر بالزوجة من الزوج « كالهجر بغير سبب شرعى ، والضرب والسب بدون سبب شرعى » و « حدوث النزاع ، واشتداده مع عدم إمكان انقطاعه .. الخ .. الخ .. » وعرض هذا القانون يومئذ على شيخ الأزهر فأقره ، وبعث إلى الأستاذ الإمام برسالة إشادة وتأييد وثناء(٢) .

---

(١) المصدر السابق جـ ٥ ص ٢١١ ـ ٢١٢ .

(٢) انظر نص هذا المشروع بقانون فى الفتوى التى سيأتى نصها ضمن نصوص الإمام عن الطلاق فى هذا الكتاب .

وعندما سأل « فرح أنطون » (١٨٦١ ـ ١٩٢٢م) صاحب مجلة «الجامعة»، الأستاذ الإمام عن رأى الشريعة الإسلامية فى « التحكيم » بين العمال وأصحاب الأعمال ، استطرد فى جوابه إلى « التحكيم » الذى ورد فى القرآن ، وتحدث عن « التحكيم » بين الزوج والزوجة فقط بأنه « واجب » على ولى الأمر وعلى جماعة المسلمين ، وذلك يعنى أن الإثم بإهمال إقامته وتطبيق نظامه إنما يلحق المجتمع الإسلامى بأسره ـ حكاماً ومحكومين ـ ذلك أن إهماله يفضى إلى « فساد فى البيوت بين الأولاد والأقارب ، ومثل هذا الفساد مما يسرى وينتشر حتى يؤذى الأمة بتمامها فى صلاتها بعضها مع بعض ، كما شوهد ذلك عند إهمال هذا الحكم الجليل من زمن طويل حتى كأنه لم يرد فى التنزيل ! »[١] .

فهو هنا قد حسم القضية لمصلحة « التحكيم » وعندما اعتبره « واجباً » على ولى الأمر فإنه قد وضع بذلك رأيه مع الذين يرون تقييد هذا الحق «بالتحكيم» وجعل « الحكمين » و « القاضى » الذى يمثل ولى الأمر والدولة ضوابط وصمامات أمن للأسرة ترفع من سماء حياتها ذلك الشبح المخيف والخطر الذى يهدد بنيانها بالانتقاض .

* * *

(١) المصدر السابق . ج١ ، ص٦٧٥ .

تعدد الزوجات

أما موضوع تعدد الزوجات ، ورأى الإسلام فيه ، فلقد استمر اهتمام الأستاذ الإمام به طوال حياته الفكرية فكتب عنه فى (الوقائع المصرية) (عددى ٧ و ٨ مارس سنة ١٨٨١م) وأصدر بشأنه فتوى ليس لها فى الاجتهاد الإسلامى نظير فى موضوعها ـ عندما تولى منصب الإفتاء ـ وأفاض فى الحديث عنه عندما جلس بالجامع الأزهر يفسر قول الله سبحانه فى الآية ٣ من سورة النساء : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾ وفى هذه المناسبات الفكرية الثلاث حدد الأستاذ الإمام رأيه كأوضح ما يكون التحديد .

ففى مقال (الوقائع المصرية) الأول يدعو إلى تقييد الشهوة الجنسية فى الإنسان ، ويرى التزام « الاختصاص بين الزوج والزوجة » عندما يقول : « إن سعادة الإنسان فى معيشته ـ بل صيانة وجوده فى هذه الدار ـ موقوفة على تقييد تلك الشهوة « الجنسية » بقانون يضبط استعمالها ، ويضرب لها حدوداً يقف كل شخص عندها ، وتوجب الاختصاص بين الزوج والزوجة »[1] .

وعندما يعرض لرأى الشريعة الإسلامية فى تعدد الزوجات يقطع بأنها قد

---

(١) المصدر السابق . ج٢ ، ص٧٠ .

علقت إباحة التعدد على شرط التحقق من العدل بينهن ، ويقطع بأن هذا العدل غير ميسور التحقق « كما هو مشاهد » ومن ثم فإن الموقف هو وجوب الاقتصار على الزوجة الواحدة ما دام هناك ظن بعدم تحقيق هذا العدل المطلق المطلوب ـ يقول ـ فى المقال الثانى من مقالات « الوقائع المصرية » : « .. قد أباحت الشريعة المحمدية للرجل الاقتران بأربع نسوة ، إن علم من نفسه القدرة على العدل بينهن ، وإلا فلا يجوز الاقتران بغير واحدة ، قال تعالى : ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَن لاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ ، فإن الرجل إذا لم يستطع إعطاء كل منهن حقها اختل نظام المنزل وساءت معيشة العائلة .. أفبعد الوعيد الشرعى ، وذلك الإلزام الدقيق الحتمى الذى لا يحتمل تأويلاً ولا تحويلاً يجوز الجمع بين الزوجات عند توهم عدم القدرة على العدل بين النسوة فضلاً عن تحققه ! ! »[1] .

وبعد مقالات « الوقائع » عرض الأستاذ الإمام لنفس القضية فى تفسيره للقرآن ، وفى الفتوى التى قدم فيها دراسة عن تعدد الزوجات من الناحية التاريخية وموقف الإسلام منه ، وما يجب أن نصنع إزاء مشاكله وآثاره على حياة الأسرة المسلمة .. ولقد قرر ـ فى عرضه هذا ـ عدة مبادئ أهمها :

١ ـ أن نظام تعدد الزوجات ، واعتياد هذا النظام ، ليس قسمة أصيلة من قسمات الشرق ، وليس عادة من عادات الشرقيين يتميزون بها عن الغرب والغربيين ، فإن بعض شعوب الشرق مثل « التبت » و « المغول » لا تعرف

---

(١) المصدر السابق . ج٢ ، ص٧٨ ، ٨٠ .

تعـدد الزوجات ، كـما أن بـعض فتـرات التاريخ قـد عـرفت هذا النظام عند بعض الشعـوب الغربيـة مثل « ألغولو » و « الجـرمانيين » . ومن ثم فإن هذا النظام هو وليد ظروف وعوامل اقتصادية واجتمـاعية وحربية ، وليس خاصية للشرق والشرقيين تستعصى على العلاج والتغيير والإلغاء .

٢ ـ وأن نشأة تعـدد الزوجات قد ارتبطت بـوجود الذين امتـازوا باحتكار «الرئاسة » و « الثروة » فى هذه المجـتمعات . ولقد دعت إليه كـثرة النساء عن الرجال بسـبب الحروب التى أهلكت عـدداً كبيـراً من الرجال ـ مثلمـا حدث للعرب فى جاهليتهم ـ ومن ثم فإنه مرتبط بظروف مـعلومة ، على الناس أن يفكروا فى تغييره بتغير هذه الظروف .

٣ ـ وأن الإسـلام عندما ظهـر قد اتخـذ موقـفـاً إصلاحـيـاً من نظام تعـدد الزوجات ، فـلقد كان التـعدد مـباحـاً بلا حدود ، فـجعل الإسـلام له حداً لا يتعـداه وهو أربع زوجات ، وطبق هـذا التحديد « بـأثر رجعى » عندمـا جعل الذين أسلموا ولهم أكـثر من هذا العدد من الزوجات يتـخلون عمن زاد على الأربع .. كما اشـترط العدل المطلق لقيام التـعدد .. وليس صحيحاً مـا يدعيه بعض البـاحثـين الغـربيـين من أن الإسلام قـد أقـر نظام التـعدد الجـاهلى فى الزوجات « وأن ما كان عند العرب عادة جعله الإسلام ديناً .. » وإن منشأ هذا الخطأ عند هؤلاء البـاحـثين أنهم قـد درسـوا أحوال المسلـمين وواقـعـهم لا الإسـلام وقواعـده ، وذلك فى عـصـور بعدت فـيـها الـشقـة بين نظام تعـدد الزوجات عند المسلمين والموقف الحقيقى للإسلام من هذا الموضوع .

٤ ـ وأن الإسلام عندما أباح التعدد إنما كان يريد الخروج بالناس من ظلم أشد ، وذلك عندما كانوا يتزوجون اليتيمات اللاتى تحت وصايتهم طمعاً فى مالهن ، فيهضمون حقوقهن .. فقال لهم الإسلام : دونكم الأخريات فتزوجوا منهن حتى أربع .. وأنه عندما أباح لهم ذلك قد اشترط لهذه الإباحة تحقق العدل المطلق بين الزوجات ، فإن ظن الرجل عدم تحقق العدل المطلق وجب الاقتصار على الزوجة الواحدة .. فالموقف ليس الترغيب فى التعدد ، بل التبغيض له .

٥ ـ ثم يصل الرجل إلى السؤال الحاسم : هل يجوز منع تعدد الزوجات ؟؟ .. ويجيب عنه بالجواب الحاسم : نعم .. لأن العدل المطلق شرط لإباحة التعدد ، وتحقق هذا العدل « مفقود حتماً » .. ووجود الإنسان الذى يعدل بين الزوجات المتعددات هو أمر نادر ، لا يصح أن يقاس عليه التشريع ، كما أن التعدد قد أصبح مصدر ضرر محقق واقع بالزوجات ، وأنه يورث العداوة والبغضاء بين الأبناء والبنات مما يهز كيان الأسرة ـ اللبنة الأولى فى المجتمع ـ ومن ثم فإن للحاكم ـ ولعالم الدين ـ أن يمنع تعدد الزوجات بشكل مطلق ، وذلك باستثناء حالة الضرورة القصوى ، مثل عقم المرأة مع رغبة الزوج فى الإنجاب ، الذى هو الغاية الكبرى من الزواج ، عند ذلك يباح الزواج بثانية ، بعد رفع الأمر إلى القضاء الذى يختص بالتحقق من قيام الضرورة ، أى أن الزواج بثانية لا يباح إلا بحكم من القضاء .

أما النصوص الكاملة التى ضمنها الأستاذ الإمام هذه الآراء ، فهى :

أولاً : الفتوى التى أصدرها وهو يشغل منصب « مفتى الديار المصرية » . والتى نشرها المرحوم الشيخ محمد رشيد رضا فى عدد مجلة « المنار » الصادر فى ٣ مارس سنة ١٩٢٧م (٢٩ شعبان سنة ١٣٤٥هـ)[١] والتى يقول فى نهايتها :

« وأما جواز إبطال هذه العادة ـ أى عادة تعدد الزوجات ـ فلا ريب فيه .. أولاً : فلأن شرط التعدد هو التحقق من العدل ، وهذا الشرط مفقود حتماً ، فإن وجد واحد من المليون فلا يصح أن يتخذ قاعدة ، ومتى غلب الفساد على النفوس ، وصار من المرجح ألا يعدل الرجال فى زوجاتهم جاز للحاكم أو لعالم الدين أن يمنع التعدد مطلقاً ، مراعاة للأغلب .

وثانياً : قد غلب سوء معاملة الرجال لزوجاتهم عند التعدد ، وحرمانهن من حقوقهن فى النفقة والراحة ، ولهذا يجوز للحاكم والقائم على الشرع أن يمنع التعدد دفعاً للفساد الغالب .

وثالثاً : قد ظهر أن منشأ الفساد والعداوة بين الأولاد هو اختلاف أمهاتهم ، فإن كل واحد منهم يتربى على بغض الآخر وكراهيته ، فلا يبلغ الأولاد أشدهم إلا وقد صار كل منهم من أشد الأعداء للآخر ، ويستمر النزاع بينهم إلى أن يخربوا بيوتهم بأيديهم وأيدى الظالمين . ولهذا يجوز للحاكم أو لصاحب الدين أن يمنع تعدد الزوجات والجوارى معاً صيانة للبيوت من الفساد .

---

(١) المصدر السابق . ج٢ ، ص٩٠ـ ٩٥ (وانظر نصها الكامل فى موضعه من هذا الكتاب) .

نعم .. ليس من العدل أن يمنع رجل لم تأت زوجته منه بأولاد أن يتزوج أخرى ليأتى منها بذرية ، فإن الغرض من الزواج التناسل ، فإذا كانت الزوجة عاقراً فليس من الحق أن يمنع زوجها من أن يضم إليها أخرى .

وبالجملة : فيجوز الحجر على الأزواج عموماً أن يتزوجوا غير واحدة إلا لضرورة تثبت لدى القاضى ، ولا مانع من ذلك فى الدين البتة ، وإنما الذى يمنع ذلك هو العادة فقط » .

ثانياً : التفسير الذى ألقاه الأستاذ الإمام بالجامع الأزهر للآية القرآنية التى جاء فيها ذكر تعدد الزوجات ـ « آية النساء رقم ٣ » ﴿ **وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلاَّ تَعُولُوا** (٣) ﴾ وهو التفسير الذى ألقاه فى العام الذى توفى فيه « سنة ١٩٠٥م » .. وفيه قال الأستاذ الإمام[١] :

« كان للتعدد فى صدر الإسلام فوائد ، أهمها : صلة النسب والصهر الذى تقوى به العصبية ، ولم يكن له من الضرر مثل ما له الآن ؛ لأن الدين كان متمكناً فى نفوس النساء والرجال ، وكان أذى الضرة لا يتجاوز ضرتها ، أما اليوم فإن الضرر ينتقل من كل ضرة إلى ولدها ، إلى والده ، إلى سائر أقاربه .

---

(١) المصدر السابق . ج٥ ، ص ١٦٩ـ١٧١ (وانظر نصه الكامل فى مكانه من هذا الكتاب) .

فيجب على العلماء النظر فى هذه المسألة ؛ فهم لا ينكرون أن الدين نزل لمصلحة الناس وخيرهم ، وأن من أصوله منع الضرر والضرار ، فإذا ترتب على شئ مفسدة فى زمن لم تكن تلحقه فيما قبله فلا شك فى وجوب تغيير الحكم وتطبيقه على الحال الحاضرة .

إن إباحة تعدد الزوجات مضيقة ، قد اشترط فيها ما يصعب تحققه ، فكأنه نهى عن كثرة الأزواج ، وأنه يحرم على من خاف عدم العدل أن يتزوج أكثر من واحدة » .

وبعد .. فهذه كلمات الأستاذ الإمام ، قدم بها إلى الحياة الفكرية الإسلامية ـ منذ نحو قرن من الزمان ـ صفحة من صفحات الاجتهاد الإسلامى العقلانى المستنير .. وهى صفحة فيها ـ إلى جانب الآراء والقضايا الهامة ـ المنهج المتقدم فى النظر إلى نصوص الفكر الإسلامى خاصة ، والفكر الدينى عموماً، وهو المنهج الوحيد القادر على أن يجعل من هذه النصوص قوة وطاقة تساعد فى تطوير المجتمعات إلى الأمام .

كما أن فى هذه الصفحة أحد الأدلة على أن الرجل كان أبرز عقل إسلامى فى عصرنا الحديث ؛ وقف أمام كتاب الله وسنة رسوله فرأى فيهما ما لم يره الكثيرون من معاصريه ، وحاول بهما أن يسهم فى تجديد وتطوير الحياة الفكرية والمادية للمسلمين خاصة وللشرقيين على وجه العموم .. رحمه الله .

★★★

نصوص الأستاذ الإمام
عن رأى الإسلام فى :

العلاقات الزوجية والمساواة
بين الرجال والنساء

- فوائد المصاهرة ..
- حاجة الإنسان إلى الزواج ...
- تفسير آية : ﴿ ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة ﴾
- تفسير آية : ﴿ الرجال قوامون على النساء ﴾
- تفسير آية : ﴿ وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً ﴾
- احترام حرية المرأة فى اختيار الزوج .

فوائد المصاهرة(*)

لا يخفى أن أحكام الشريعة المقدسة ترشدنا إلى أن المصاهرة نوع من أنواع القرابة تلتحم بها العائلات المتباعدة فى النسب ، وتتجدد بها صلات الألفة والاتحاد ، فقد حرّم الله على الشخص أن يتزوج بأمه أو أنثى من أصولها وفروعها ، كما حرم عليه أن يتزوج بأخته أو أنثى من أصول نفسه وفروعه . وكذلك حرّم على زوجته أن تقترن بشئ من أصوله أو فروعه ، فكأنما أنزل الله كلا من الزوجين منزلة أصول نفسه وفروعه ، فهذه حكمة بالغة أقامها الشرع لنا برهاناً واضحاً على أن اتصال إحدى العائلتين بالأخرى بطريق المصاهرة مساوٍ لنفس القرابة النسبية فى الأحكام والحقوق والاحترام ، وهذا هو الموافق لما عليه طبيعة الاجتماع الإنسانى ، ولازم لرابطة القرابة النسبية بالطبع .

فإننا قد ذكرنا فى جملنا السابقة(١) أن حكمة الزواج ـ كما نص عليه علماؤنا ـ إنما هى حفظ النوع ، ووقاية الوجود البشرى من خطر الفناء والزوال ، وبينا أن هذا إنما يكون باطمئنان كل من الزوجين إلى الآخر ، وتوجههما إلى غاية واحدة وهى حفظ أنفسهما وحفظ نسلهما ، وإعداد

(*) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ، ج٢ ص٩٨ ـ ٩٩ .

(١) أى فى مقالات سبقت هذا المقال فى الوقائع المصرية .

جميع ما يلزم لوقايته ونمائه وإبلاغه الحد الذى يستقل عنده بالسعى فى حفظ وجوده ، ويطلب من أسباب بقاء النوع ما طلبه والده ، فمن كانت له ابنة ، وهو يميل إليها ميل الوالد إلى ولده ، وقضت سنة الله في خلقه بأن يقترن بها شخص من الناس ، فمقتضى محبة الوالد لابنته أن يطلبَ لها جميع الخيرات، ويود لو بلغت أقصى درجات السعادة .

وحيث إن سعادتها يبعد أن تكون بدون سعادة زوجها الذى هى مقترنة به، فمن الواجب عليه أن يميل إلى زوجها ميله إلى نفسها ، ويكون عوناً له على سعادته ، لتتصل بها سعادة ابنته ، وهكذا كل من ينتسب إليها بنوع من القرابة، فعليهم أن يكونوا على طراز من المحبة لزوجها مثل ما هم عليه بالنسبة إليها ، فلو سعى أحد منهم فى تكدير خاطر الزوج الذى هو مرتبط بها ارتباط الروح بالجسد فقد سعى فى تكديرها لا محالة .

وهكذا يجب على نفس الزوج وأقربائه لنفس الزوجة وأقاربها مثل تلك الواجبات ، فيلزم أن تكون المصاهرة سبباً حقيقياً فى ارتباط العائلات ، توجب على كل من العائلتين للأخرى مثل ما توجب القرابة النسبية على كل من أعضاء العائلة للآخر .

وعلى هذا جرت عوائد الأمم التى كنا نسميها وحشية فى الأزمنة السابقة، ولن تزال عوائدها على ذلك إلى هذا الوقت فى الأقطار التى لم يشرفها اسم التمدن ، فلا تصاهر قبيلة قبيلة أخرى إلا إذا أرادت أن تدخل معها تحت ميثاق واحد تكون به كل منهما عوناً للثانية على دفع جميع المكاره وجلب كافة المألوفات ، ولو أن دماء سفكت بين قبيلتين ، وعداوة تمكنت فى نفوس

جميع أفرادهما أزمنة طوالاً ، ثم ملوا مقارفة الحروب ، وكلوا من مقارعة القتال ، وطلبوا الراحة الدائمة والسلم المستمر لم يجدوا وسيلة تقطع عرق العداوة وتستبدله برباط المحبة إلا أن تتصاهر القبيلتان ، فتصيران كذى نسب واحد ، ويتناسى بذلك ما كان من أمر العداوة .

وهكذا كانت السنّة فى البلاد المتمدنة ، ولم تزل عليها إلى اليوم ، يعدّون المصاهرة علاقة تامة القرابة ، حتى أن الملوك تتخذها واسطة سياسية لاستمالة كل من الدولتين إلى الأخرى ، فانتقل أمر المصاهرة وعظم شأنها حتى غدت رابطة بين الأمم المتنافرة ، كما تقتضيه الطبيعة وتشير إليه الشريعة .

غير أن هذه الفوائد الجليلة التى وضعها الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى عقد الزواج والمصاهرة إنما تتوفر للإنسان ويتمتع بها إذا روعى فيه حكمته الأصلية، واتبعت فيه الأصول الشرعية ، وعلم كل من الزوجين علم اليقين أنه لم ينضم إلى الآخر إلا ليكون ركناً من أركان سعادته وعوناً له على القيام بتلك الوظيفة الإنسانية ، وهى وظيفة حفظ النسل والبلوغ به حد الكمال ، وهذا إنما يكون إذا حسنت تربية كل من الذكر والأنثى ، وتحلت نفوسهما بالفضائل، وعقولهما بالمعرفة الحقة ، حتى أعدّوا لذة الاجتماع وسيلة وطريقة إلى ذلك الخير الكلى ، أعنى التعاون والتعاضد على حفظ الذات الشخصية والنوع الكلى ، أعنى حفظ الذرية . فإن هذا التصوير يستدعى نظراً عامّاً وتطلعاً لغاية كلية تفنى عندها جميع الغايات الجزئية ، فتتوجه همة كل من المزدوجين إلى جلب المصالح ودرء المفاسد ، وعلى ذلك تكون عزائم الأنسباء والأقرباء لكل منهما ، مراعاة لغاية المحبة الرحمية عينها ، كما بيناه أولاً .

ولكن إذا كانت أهالي البلاد منصرفة العقول عن رعاية الحكم الإلهية ، قاصرة الأذهان فلا تنظر إلا إلى اللذائذ الوقتية الآنية ، رأيت أسباب المودة تنقلب عندها إلى أسباب عداوة ونفور ، ألا ترى أن المصاهرة التي وضعها الله من أقوى أسباب الارتباط ، وأنزلها منزلة النسب ، كيف صارت عند غالب الناس في بلادنا سبباً للعداوة والتقاطع الشديد ؟ والسبب في ذلك قصور التربية ونقص العقول ، فقد يتزوج الرجل من عائلة فتكون عند الزواج وقبله بقليل علاقات المحبة أكيدة وصلات الوداد نامية ، حتى إذا مضى بعد الزواج آن غير بعيد رأيت نوعاً من المناقشات يبدو ويظهر غالباً بين أهل الزوج وزوجته ، فتأخذ تلك المناقشات مأخذاً من قلب الزوجة ، إما لجهلها وإما لسوء معاملة أهل الزوج حقيقة ، فإن كان الأول فهو من قصور تربيتها ونقص فطرتها ، وإن كان الثاني فهو من حماقة الأهل وفساد نظرهم . وعلى كلا الحالين فمتى وصل الخبر آذان أهل الزوجة أخذ من قلوبهم ما أخذ قلبها ، وهكذا يتزايد النفور حتى تنقلب تلك المودة الأولى بعداوة تقضي على كل من العائلتين المتصاهرتين بالسعي في كيد الأخرى ونكبتها .

وهكذا لو سرت في أطراف بلادنا ـ خصوصاً في الجهات الريفية ، لا فرق فيها بين الأوساط وذوي الشرف ـ لرأيت هذه الحالة غالبة ، فكأن من يريد المصاهرة يطلب أن يتخذ لنفسه أعداء ومباغضين !! ..

وإننا لا نتأسف في ذلك على ما يكون بين العائلات أو الأشخاص من العداوات والمنافسات إذا بقي ضرره قاصراً على ما بينهما من المصالح

الجـزئيـة، ولكن الضـرر الكلىّ هـو أن روح العـداوة متى نـفث فى روع الأشخـاص وفشا فى نفوس الـعائلات تعدى شروه إلى المـصالح العمومـية ، وتوجهـت نفوس الأفراد إلى حـب الاختصـاص بالمنافع ، وانصرفت الـهمم (عن وجهة حب الخير الإنسانى) فتكون أعـضاء الهيئة الاجـتماعية مـختلفة النظام بما بين أعضائهـا من الفساد ، فتلك المنازعات الجزئيـة يظهر تأثيرها فى الهيئة الاجتماعية الكليـة ، حتى إذا عرض أمر من الخير أو الشر ، واحتاج إلى التـروى والتـشـاور فيـه لتـقـرير مـا يدفع الشـر أو يجلب الخـيـر رأيت تلك المنافسـات الشخـصية تحـول بين الآراء والصواب ، وظهر ذلـك النفور الذى ابتدأته المصاهرة يقوم مقام النفور الذى توجبه المباينة فى الجنس أو المخالفة فى المشرب .

فما لنـا لا نتخذ الأسباب الطـبيعية الاعـتيادية التى وضعت لجمع الكلمة والتام المتـفرق وسيلة لما وضعت له ، مـعتبرين فى ذلك بما يرشـد إليه الشرع القويـم ، وبأحـوال الأمم المتمدنة ، أو آثار القبـائل المتوحشة ، ومـا بالنا ضربنا صـفحـاً عن مراعـاة وسائل الألفـة والوئام ، مـع أننا أشـد النـاس احـتيـاجـاً إليهـا ؟! .

نعم .. هناك سبب واحد هو الذى أوجب هذا ، بل وغيره من الأمور الغير المرضيـة ، وهو نقص التربيـة العمـومية ، وعـدم جريانه على طريقـة شرعـية كاملة. وإن موضوع التربية لميدان واسع تتسابق الأقلام فيه ، وإننا ـ إن شاء الله ـ نعود إليه ، فهو الذى يليق أن تصرف إليه الأفكار وتستجلب إليه الأنظار .

حاجة الإنسان إلى الزواج(*)

وعدنا فى أحد أعدادنا الماضية أن نتكلم فى المصاعب التى عرضت من تزوج النساء المتعددات عند مخالفة حكم الشرع فى أمرهن ، فالآن نوفى بما وعدنا ، بادئين بتمهيد نتبعه بالمقصود فنقول :

ـ لما كان من لوازم حفظ النوع الإنسانى المعرّض للفناء والزوال : التناسل والتوالد ، أودع الحق سبحانه فى طبيعة الإنسان قوة شهوية تدعوه إلى الاقتران ، وتحمله على طلب الازدواج ، كسائر أنواع الحيوانات .

غير أن الإنسان يمتاز عن سائر الحيوانات بقوة مذكرة يستحضر بها ما شهده فى الماضى ، فيطلبه إن كان لذيذاً ، استحصالاً لمجرد اللذة ، وله حرص بالطبع على المدافعة عن كل ما يروم جلبه لنفسه من أن تمسه يد الغير ، ويدافع عنه ما استطاع كل من حاول مشاركته فيه ، ثم إن هذا التمييز العقلى دعاه لأن يطلب من الأزواج ما هو أبهى فى المنظر ، وأنعم فى الملبس ، وأسلم من الآفات والمشوهات ونحو ذلك ، فلا يسمح لأحد ـ بمقتضى الحرص الذى نسميه « غيرة » ـ أن يشاركه فيه ، ويدفع ذلك بكل ما يمكنه ، حتى القتل والجرح ، وهذا بخلاف باقى الحيوانات فإنها وإن كان يغار ذكرها على أنثاها

(*) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده جـ ٢ ص ٦٨ ـ ٧١ .

وقت طلبه لها ، لكنها لحيظات وتنقضي ، فإذا سافدها[1] انقضت الغيرة بانقضاء الشهوة ، والإنسان ـ لفكره ـ ليس كذلك ، بل يلازم الحرص فى جميع أحواله ؛ خوفاً على المستقبل .

ومن المعلوم أن تلك القوة وهذه الخواص منتشرات فى جميع الأفراد البشرية ، فكل واحد منهم يطلب صرف شهوته مع من اتصف بالجمال ، وسلم من الآفات ، حالة كون كل واحد منهم يطلب الاستئثار به ، ويدافع الغير عنه ، لما قدمناه من الأسباب ، وزد على ذلك أن الإنسان فى حاجة إلى التعاون بالضرورة ، وهو فى فطرته لا ينظر إلى التعاون بجميع أفراد الإنسان ، فلا بد له من تعلق خاص يوجب عقد التعاون الخاص ، فلو ترك الإنسان مسترسلاً مع شهوته من غير أن تقيد طرق استعمالها بقانون يحفظ ثمرتها ، ويكفل سلامة نتيجتها لاختل عقد نظام الإنسان ، وفسدت أركان سعادته ، ولم يصن وجوده عن غائلة الزوال وعاديات الفناء ، وذلك من وجوه :

الأول : أن النسوة إذا أبيحت لكل ذكر من الرجال ، وأبيح لكل أنثى أن تقترن بكل زوج فى أي وقت ، لاشتعلت نار الغيرة فى أفئدة كل واحد من البشر ، وسارع كل إلى مدافعة من يروم الاشتراك معه ، ولو أدى ذلك إلى سفك دماء الطالبين والطالبات .

الثانى : أن المرأة عاجزة بالطبع عن القدرة على جلب لوازم معيشتها ، ودرء المكروهات عن ذاتها ، خصوصاً فى أزمنة الحمل وعقب الولادة وسنى

---

(١) جامعها .

الرضاع ، وما لم يعلم الرجل اختصاصه بها لا يسعى فى القيام بحاجاتها ، والمدافعة عن حقوقها ، فتضيع وتضيع ذريتها .

الثالث : وهو أعم من هذا .. أن الرجل لا يخاطر بنفسه فى تحمل الأتعاب واقتحام الشدائد طلباً للحصول على وسائل المعيشة إلا إذا رأى صبية وعيالاً هم عالة عليه فى أمور معيشتهم ، ونوال مآربهم ، يؤدى إليهم ما استطاع من الرزق وقت قدرته ، مؤملاً فيهم أنه إذا وهنت قواه بعد عنايته بتربيتهم إذا كبروا يعوّضون عليه أتعابه السالفة ، وتسيئهم مصيبته ، ويفرحون بثروته وسعادته ، بل لو لم تكن له زوجة وذرية تختص به ، وتعد نسبته إليها كنسبة الجسد للروح ، لما أمكنه الادخار لنفسه من قوته ، فإن ادخار العيش ـ الذى هو من لوازم الإنسان ـ موقوف على عناية الزوجات والأبناء ، وتوجّه القلوب منهم إلى مساعدة هذا الكاسب العانى ، فهو يجتهد للإيجاد ، وهم يهتمون بحفظ الموجود ، وكل ذلك مفقود إذا اختلطت الأنساب ، وجُهلت الأصول ، بل لو اختلط النسب لم تتوجه همة رجل للسعى فى تربية ولد ، فيستأصل الموت أفراد النوع فى أوائل أعمارهم .

فظهر من ذلك أن سعادة الإنسان فى معيشته ـ بل صيانة وجوده فى هذه الدار ـ موقوفة على تقييد تلك الشهوة بقانون يضبط استعمالها ، ويضرب لها حدوداً يقف كل شخص عندها ، وتوجب الاختصاص بين الزوج والزوجة ، فيمتنع التعدى ، ثم يظهر منه التعلق الخصوصى بين كل شخص وزوجته وكل زوجة وبعلها ، فيسعى كل لخير من اختص به ، حيث إن سعيه لكل

البشـر غير ممكن ، بل هو بعـيد عن الأفكار البسـيطة الغالبـة على أفراد النوع البشـرى ، وقد أتت الشرائع المنزلة بما يكفل هذا الأمـر ، وإن اختلفت مظاهره بالنسبـة إلى اخـتـلاف طبـائع الأمم ؛ لما طـرأ عليـهـا من تقلبات الأجيـال والأعـصـار ، ولم تُبِـح للرجل أية امـرأة يريدها ، إلا إذا كـانـت خـاليـة عن الأزواج ، وتيقن فراغها من الحمل ، وخُلُوَّها عن جميع الموانع التى تخل بهذا الاختصـاص ، وطلب العقد عليها ، والإجـابة منها أو وليها بالقبـول بمحضر جماعـة من الناس تذيع هذا الأمر ، لتنكف الناس عن إرادتها إذا علـموا أنها خُـصَّت برجل يقـوم بحاجـاتهـا ، ويدرأ عنها أى مكـروه ، وأمرت الطرفـين بحسن المعـاشرة ، ونهت عن ارتكاب أى أمـر يخل بنظام الاجتـماع المنزلى ، الذى لا تتم سعادة العائلة إلا برعـاية حرمته والمحافظة على حقوقـه ، كالقيام بواجبات وحاجات كل واحد من أفرادها، وحـسن الاقتصاد فى المعيشة ، وأن ينظر كل واحد إلى مصلحـة العائلة نظره إلى مصلحته الخصوصـية ، وبعبارة أظهر : ليس عنده أمر يعد مصلحة إلا إذا كـان يوجب لعائلته الثروة والتقدم ، وينقلها من حطَّة الشقاء إلى درجات السعادة والهناء .

فتبـين من ذلك أن الشهوة الحيوية المغروسة فى الإنسان لم تكن مـقصودة لذاتها ، بل هى آلة لنيل الإنسان مآربه التى لا يستطيع المقام بدونها ، كبقائه فى عالم الوجود ، يتعاون على جلب المـنافع ودفع المكروه بزوجته وأولاده وأخيه وعـمه ونحـو ذلك ممن ارتبط مـعه بالرابط المعـروف بصلة النسب والقـرابة ،

الذى يُعد من أقوى الروابط الإنسانية التى لولاها لاختل نظام الوجود الإنسانى بالمرة ، كما هو ظاهر ، ولما كان التعاون على المصالح المعاشية ، والاتحاد والتآلف ، وجمع الكلمة من ثمرات الزواج ، لم يُبح بالإجماع أن يقترن الرجل بأخته أو عمته أو ابنته ؛ لأنه يضيق تلك الفوائد ، ويقلل من الثمرات ، فضلاً عن كونه ـ فى نظر الأطباء ـ يوجب العقم وانقطاع النسل ، فلذلك أوجبت الشريعة أن يكون الزواج من عائلتين ؛ ليحصل الارتباط بينهما بعلاقة المصاهرة ، بل لابد أن يقع الاقتران من بيتين ، لتجتمع العائلتان على مصلحة واحدة ، وتصيرا بالمصاهرة كجسم تعددت أعضاؤه ، فيقوم كل عضو بما فيه مصلحة الكل ، وتتجاذب صلات المصاهرة ورابطة النسب مصالح القبائل المتفرقة ، وتجعلها متجهة إلى كعبة الاتحاد والائتلاف ، فيستريح الناس من ألم الشقاق ووخامة البغض والعناء ، أما العائلة الواحدة فيكفى فى ارتباطها العلاقة النسبية .

هذا ما أتت به الشرائع ، ونطق به علماء الدين ، وأوضحه العقلاء فى حكمة الزواج والاقتران ، بقطع النظر عن كونه بواحدة أو متعددة ، اقتصرنا عليه الآن وسنشفعه فى صحيفة غد[1] ببيان ما جاءت به شريعتنا من إباحة الزواج بأربع من النسوة ، وجواز مفارقتهن بالطلاق ، مع بيان ما كان عليه

---

(١) سيأتى المقال المشار إليه فى نصوص الأستاذ الإمام عن تعدد الزوجات .

السلف الصـــالح فى مـعـاشـرة زوجـاتهم ، ومـا نحـن عليـه الآن من سـوء معـاشرتهن ، وعدم العدل بينـهن ، وحصول ضد المقـصود ، إذ يكون الزواج موجبـاً للعداوات وتفريق الشـمل بدلاً من المحبة وجمع الكلـمة كما أوجـبته الشريعة ، وليـس لنا غرض من ذلك سـوى تبـيين الحـق وتوضيح الصـراط المستقيم .

★★★

المساواة بين الرجال والنساء

يقول الله سبحانه :

﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (البقرة ٢٢٨)

ويفسر الأستاذ الإمام هذه الآية فيقول[1] :

ولما كانت إرادة الإصلاح برد الرجل امرأته إلى عصمته إنما تتحقق بأن يقوم بحقوقها ، كما يلزمها أن تقوم بحقوقه ، ذكر جل شأنه حق كل منهما على الآخر بعبارة مجملة تُعد ركناً من أركان الإصلاح فى البشر ، وهى قوله تعالى :

﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾

هذه كلمة جليلة جداً جمعت ـ على إيجازها ـ ما لا يؤدى بالتفصيل إلا فى سفر كبير ، فهى قاعدة كلية ناطقة بأن المرأة مساوية للرجل فى جميع الحقوق ، إلا أمراً واحداً عبر عنه بقوله : ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ وسيأتى بيانه ، وقد أحال فى معرفة ما لهن وما عليهن على المعروف بين الناس فى

---

(١) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده . ج٤ ص٦٣٠ ـ ٦٣٥ .

معـاشراتهم ومعـاملاتهم فى أهليهم ، ومـا يجرى عليـه عرف الناس هو تابع لشرائعهم وعقائدهم وآدابهم وعاداتهم ، فهذه الجملة تعطى الرجل ميزاناً يزن به معـاملته لزوجه فى جـميع الشـئون والأحوال ، فإذا هـم بمطالبتهـا بأمر من الأمور يتذكر أنه يجب عليه مـثله بإزائه ، ولهذا قال ابن عباس ـ ﷺ ـ: إننى لأتزين لامـرأتى كـما تتـزين لى لهـذه الآية . وليس المراد بالمثل المثـل بأعيـان الأشياء وأشخاصها ، وإنما المراد أن الحقوق بينهمـا متبادلة وأنهما أكفاء ، فما من عمل تعمله المرأة للرجل إلا وللرجل عمل يقابله لها ، إن لم يكن مثله فى شخصـه ، فهو مثله فى جنسـه ، فهما متـماثلان فى الحقوق والأعمـال ، كما أنهما متماثلان فى الذات والإحسـاس والشعور والعقل ، أى أن كـلا منهما بشر تام له عقل يتفكر فى مصالحـه ، وقلب يحب ما يلائمه ويسر به ويكره ما لا يلائمه وينفر منه ، فليس من العدل أن يتحكم أحد الصنفين بالآخر ويتخذه عبداً يستـذله ويستخدمه فى مصـالحه ، ولا سيما بعد عقـد الزوجية والدخول فى الحيـاة المشتركـة التى لا تكون سعيـدة إلا باحترام كل من الزوجـين الآخر والقيام بحقوقه .

هذه الدرجة التى رفع النساء إليها ، لم يرفعـهن إليها دين سابق ولا شريعة من الشرائع ، بـل لم تصل إليها أمـة من الأمم قبل الإسـلام ولا بعده ، وهذه الأمم الأوروبية التى كـان من آثار تقدمهـا فى الحضارة والمـدنية أن بالغت فى تكريم النسـاء واحـترامهن ، وعنيت بتـربيتهن وتعليـمهن العلوم والفنون ، لا تزال دون هذه الدرجة التى رفع الإسلام النساء إليها ، ولا تزال قوانين بعضها تمنع المرأة من حق الـتصـرف فى مـالهـا بدون إذن زوجـهـا ، وغـيـر ذلك من

الحقوق التي منحتها إياها الشريعة الإسلامية من نحو ثلاثة عشر قرناً ونصف ، وقد كان النساء في أوروبا منذ خمسين سنة بمنزلة الأرقاء في كل شئ كما كن في عهد الجاهلية عند العرب أو أسوأ حالاً . ونحن لا نقول إن الدين المسيحى أمرهم بذلك ؛ لأننا نعتقد أن تعليم المسيح لم يخلص إليهم كاملاً سالماً من الإضافات والبدع ، ومن المعروف أن ما كانوا عليه من الدين لم يرق المرأة وإنما كان ارتقاؤها من أثر المدنية الجديدة في القرن الماضي .

وقد صار هؤلاء الإفرنج الذين قصرت مدنيتهم عن شريعتنا في إعلاء شأن النساء يفخرون علينا ، بل يرموننا بالهمجية في معاملة النساء ، ويزعم الجاهلون منهم بالإسلام أن ما نحن عليه هو أثر ديننا . إن أحد السائحين من الإفرنج زارني في الأزهر ، وبينا نحن مارّان في المسجد رأى الإفرنجي بنتاً مارة فيه ، فبهت وقال : ما هذا ؟ أنثى تدخل الجامع !!! فقلت له : وما وجه الغرابة في ذلك ؟ قال : إننا نعتقد أن الإسلام قرر أن النساء ليس لهن أرواح ، وليس عليهن عبادة !! فبينت له غلطه وفسرت له بعض الآيات فيهن . فانظروا كيف صرنا حجة على ديننا ؟ وإلى جهل هؤلاء الناس بالإسلام حتى مثل هذا الرجل الذى هو رئيس لجمعية كبيرة ، فما بالكم بعامتهم ؟! .

إذا كان الله قد جعل للنساء على الرجال مثل ما لهم عليهن إلا ما ميزهم به من الرياسة ، فالواجب على الرجال ـ بمقتضى كفالة الرياسة ـ أن يعلموهن ما يمكنهن من القيام بما يجب عليهن ويجعل لهن في النفوس احتراماً يعين على القيام بحقوقهن ويسهل طريقه ، فإن الإنسان ـ بحكم الطبع ـ يحترم من يراه مؤدباً عالماً بما يجب عليه عاملاً به ، ولا يسهل عليه أن يمتهنه أو يهينه ، وإن

بدرت منه بادرة في حقه رجع على نفسه باللائمة ، فكان ذلك زاجراً له عن مثلها .

خاطب الله تعالى النساء بالإيمان والمعرفة والأعمال الصالحة في العبادات والمعاملات كما خاطب الرجال ، وجعل لهن عليهم مثل ما جعله لهم عليهن، وقرن أسماءهن بأسمائهم في آيات كثيرة . وبايع النبي ﷺ المؤمنات كما بايع المؤمنين . وأمرهن بتعلم الكتاب والحكمة كما أمرهم . وأجمعت الأمة على ما مضى به الكتاب والسنّة من أنهن مجزيات على أعمالهن في الدنيا والآخرة . أفيجوز بعد هذا كله أن يحرمن من العلم بما عليهن من الواجبات والحقوق لربهن ولبعولتهن ولأولادهن ولذى القربى وللأمة والملة ؟ العلم الإجمالي بما يطلب فعله شرط في توجه النفس إليه ؛ إذ يستحيل أن تتوجه إلى المجهول المطلق ، والعلم التفصيلي به المبين لفائدة فعله ومضرة تركه يعد سبباً للعناية بفعله والتوقي من إهماله ، فكيف يمكن للنساء أن يؤدين تلك الواجبات والحقوق مع الجهل بها إجمالاً وتفصيلاً ؟ وكيف تسعد في الدنيا أو الآخرة أمة نصفها كالبهائم لا يؤدى ما يجب عليه لربه ولا لنفسه ولا لأهله ولا للناس ؟! والنصف الآخر قريب من ذلك لأنه لا يؤدى إلا قليلاً مما يجب عليه من ذلك ويترك الباقي ، ومنه إعانة ذلك النصف الضعيف على القيام بما يجب عليه من علم وعمل ، أو إلزامه إياه بما له عليه من السلطة والرياسة .

إن ما يجب أن تعلمه المرأة من عقائد دينها وآدابه وعباداته محدود ، ولكن ما يطلب منها لنظام بيتها وتربية أولادها ونحو ذلك من أمور الدنيا كأحكام المعاملات ـ إن كانت في بيت غنى ونعمة ـ يختلف باختلاف الزمان والمكان

والأحوال ، كما يختلف بحسب ذلك الواجب على الرجال ، ألا ترى الفقهاء يوجبون على الرجل النفقة والسكنى والخدمة اللائقة بحال المرأة ؟ ألا ترى أن فروض الكفايات قد اتسعت دائرتها ؟ فبعد أن كان اتخاذ السيوف والرماح والقسى كافياً فى الدفاع عن الحوزة صار هذا الدفاع متوقفاً على المدافع والبنادق والبوارج ، وعلى علوم كثيرة صارت واجبة اليوم ولم تكن واجبة ولا موجودة بالأمس ؟ ألم تر أن تمريض المرضى ومداواة الجرحى كان يسيراً على النساء فى عصر النبى ﷺ وعصر الخلفاء - رضى الله تعالى عنهم - وقد صار الآن متوقفاً على تعلم فنون متعددة وتربية خاصة ؟ أى الأمرين أفضل فى نظر الإسلام ؟ أتمريض المرأة لزوجها إذا هو مرض أم اتخاذ ممرضة أجنبية تطلع على عورته وتكشف مخبئات بيته ؟ وهل يتيسر للمرأة أن تمرض زوجها أو ولدها إذا كانت جاهلة بقانون الصحة وبأسماء الأدوية ؟ نعم قد تيسر لكثيرات من الجاهلات قتل مرضاهن بزيادة مقادير الأدوية السامة أو بجعل دواء مكان آخر .

روى ابن المنذر والحاكم - وصححه - وغيرهما عن على - كرّم الله تعالى وجهه - أنه قال فى تفسير قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾(١) : علّموا أنفسكم وأهليكم الخير وأدبوهم . والمراد بالأهل النساء والأولاد ذكوراً وإناثاً ، وزاد بعضهم هنا : العبد والأمة - وهو من أهل المكان أهولا : عَمَرَ ، وأهل الرجل وتأهل : تزوج - وأهل الرجل : زوجه وأهل بيته الذين يسكنون معه فيه ، والأصل فيه القرابة . وجمع الأهل :

---

(١) التحريم : ٦ .

أهلون ، وربما قيل الأهالي . وإذا كان الرجل يقي نفسه وأهله نار الآخرة بتعليمهم وتأديبهم ، فهو كذلك يقيهم نار الدنيا وهي المعيشة بالشقاء وعدم النظام .

والآية تدل على اعتبار العرف في حقوق كل من الزوجين على الآخر ما لم يحل العرف حراماً أو يحرم حلالاً مما عرف بالنص ، والعرف يختلف باختلاف الناس والأزمنة ، ولكن أكثر فقهاء المذاهب المعروفة يقولون : إن حق الرجل على المرأة ألا تمنعه من نفسها بغير عذر شرعي ، وحقها عليه النفقة والسكنى ... الخ .. وقالوا : لا يلزمها عجن ولا خبز ولا غير ذلك من مصالح بيته أو ماله وملكه . والأقرب إلى هداية الآية ما قاله بعض المحدثين والحنابلة . قال في « حاشية المقنع »[1] ـ بعد ذكر القول بأنه لا يجب عليها ما ذكر ـ : وقال أبو بكر بن أبي شيبة والجوزجاني : عليها ذلك ، واحتجا بقضية علي وفاطمة ـ رضي الله عنهما ـ فإن النبي ﷺ قضى على ابنته بخدمة البيت ، وعلى عليٍّ ما كان خارجاً من البيت من عمل . رواه الجوزجاني من طرق ، قال : وقد قال ـ عليه السلام ـ : « **لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها ، ولو أن رجلاً أمر امرأته أن تنتقل من جبل أسود إلى جبل أحمر أو من جبل أحمر إلى جبل أسود لكان نولها (أو حقها) أن تفعل ذلك** » ورواه بإسناده ، قال : فهذا طاعة فيما لا منفعة فيه فكيف بمؤنة

---

(١) صاحب (المقنع) هو الفقيه الحنبلي موفق الدين عبد الله بن قدامة (المتوفى سنة ٦٨٢هـ) وحاشيته للقاضي علاء الدين المرداوي (المتوفى سنة ٨٢٨هـ) انظر (كشف الظنون) لحاجي خليفة . ج٢ ص١٨٠٩ ، ١٨١٠ .

معاشه ؟ وقال الشيخ تقى الدين : يجب عليها المعروف من مثلها لمثله . قال فى «الإنصاف »[1] : والصواب أن يرجع فى ذلك إلى عرف البلد .

وما قضى به النبى ﷺ بين بنته وربيبه وصهره (عليهما السلام) هو ما تقضى به فطرة الله تعالى ، وهو توزيع الأعمال بين الزوجين ، على المرأة تدبير المنزل والقيام بالأعمال فيه ، وعلى الرجل السعى والكسب خارجه . وهذا هو المماثلة بين الزوجين فى الجملة ، وهو لا ينافى استعانة كل منهما بالخدم والأجراء عند الحاجة إلى ذلك مع القدرة عليه ، ولا مساعدة كل منهما للآخر فى عمله أحياناً إذا كانت هناك ضرورة . وإنما ذلك هو الأصل والتقسيم الفطرى الذى تقوم به مصلحة الناس وهم لا يستغنون فى ذلك ولا فى غيره عن التعاون ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾[2] ـ ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾[3].

وما قاله الشيخ تقى الدين وما بينه به فى (الإنصاف) من الرجوع إلى العرف لا يعدو ما فى الآية قيد شعرة . وإذا أردت أن تعرف مسافة البعد بين ما يعمل أكثر المسلمين وما يعتقدون من شريعتهم ، فانظر فى معاملتهم لنسائهم ، تجدهم يظلمونهن بقدر الاستطاعة ، لا يصد أحدهم عن ظلم امرأته إلا العجز ، ويحملونهن ما لا يحملنه إلا بالتكلف والجهد ، ويكثرون

---

(١) أى كتاب (الإنصاف فى مسائل الخلاف) لأبى الفرج عبد الرحمن بن على بن الجوزى (المتوفى سنة ٥٩١هـ) .

(٢) الآية ٢٨٦ من سورة البقرة .

(٣) الآية ٢ من سورة المائدة .

الشكوى من تقصيرهن . ولئن سألتهم عن اعتقادهم فيما يجب لهم عليهن ليقولن كما يقول أكثر فقهائهم : إنه لا يجب لنا عليهن خدمة ولا طبخ ، ولا غسل ، ولا كنس ، ولا فرش[1] ، ولا إرضاع طفل ولا تربية ولد ، ولا إشراف على الخدم الذين نستأجرهم لذلك ، إن يَجِبُ عليهن إلا المكث في البيت والتمكين من الاستمتاع ، وهذان الأمران عدميان ، أى عدم الخروج من المنزل بغير إذن ، وعدم المعارضة بالاستمتاع ، فالمعنى أنه لا يجب عليهن للرجال عمل قط ، ولا للأولاد مع وجود آبائهم أيضاً .

وأما قوله تعالى ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ : فهو يوجب على المرأة شيئاً وعلى الرجال أشياء . ذلك أن هذه الدرجة هى درجة الرياسة والقيام على المصالح المفسرة بقوله تعالى : ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾[2] فالحياة الزوجية حياة اجتماعية ولابد لكل اجتماع من رئيس ؛لأن المجتمعين لابد أن تختلف آراؤهم ورغباتهم فى بعض الأمور ، ولا تقوم مصلحتهم إلا إذا كان لهم رئيس يرجع إلى رأيه فى الخلاف ؛ لئلا يعمل كل ضد الآخر فتنفصم عروة الوحدة الجامعة ويختل النظام ، والرجل أحق بالرياسة لأنه أعلم بالمصلحة ، وأقدر على التنفيذ بقوته وماله ، ومن ثم كان هو المطالب شرعاً بحماية المرأة والنفقة عليها ، وكانت هى مطالبة بطاعته فى المعروف ، فإن نشزت عن طاعته كان له تأديبها بالوعظ والهجر والضرب غير المبرح إن تعين تأديباً ، يجوز

---

(١) أى فرش أثاث المنزل .

(٢) النساء : ٣٤ .

ذلك لرئيس البيت لأجل مصلحة العشيرة وحسن العشرة ، كما يجوز مثله لقائد الجيش ولرئيس الأمة لأجل مصلحة الجماعة . وأما الاعتداء على النساء لأجل التحكم أو التشفى أو شفاء الغيظ فهو من الظلم الذى لا يجوز بحال ؛ قال ﷺ : **«كلكم راع وكلكم مسئول عن عبته ، فالإمام راع وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راع فى أهله وهو مسئول عن رعيته ، والمرأة راعية فى بيت زوجها وهى مسئولة عن رعيتها ـ إلى أن قال ـ : فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته »**[1] وسيأتى تفصيل لهذه السلطة فى سورة النساء إن شاء الله تعالى .

وختم الآية عز وجل : ﴿ **والله عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾ ولذكر العزة والحكمة هنا وجهان :

أحدهما : إعطاء المرأة من الحقوق على الرجل مثل ما له عليها بعد أن كانت مهضومة الحقوق عند العرب وجميع الأمم .

والثانى : جعل الرجل رئيساً عليها ، فكأن من لم يرض بهذه الأحكام الحكيمة يكون منازعاً لله تعالى فى عزة سلطانه ، ومنكراً لحكمته فى أحكامه . فهى تتضمن الوعيد على المخالفة كما عهدنا من سنَّة القرآن .

★★★

---

(١) من حديث ابن عمر . متفق عليه .

القوامة : تقسيم العمل

يقول الله سبحانه :

﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا (٣٤) ﴾

(النساء : ٣٤)

وفسرها الأستاذ الإمام فقال :(١)

المراد بالقيام هنا هو الرياسة التي يتصرف فيها المرءوس بإرادته واختياره وليس معناها أن يكون المرءوس مقهوراً مسلوب الإرادة لا يعمل عملاً إلا ما يوجهه إليه رئيسه ، فإن كون الشخص قيماً على آخر هو عبارة عن إرشاده والمراقبة عليه في تنفيذ ما يرشده إليه ، أي : ملاحظته في أعماله وتربيته ، ومنها حفظ المنزل ، وعدم مفارقته ـ ولو لنحو زيارة أولى القربى ـ إلا في الأوقات والأحوال التي يأذن بها الرجل ويرضى .

والمراد بتفضيل بعضهم على بعض تفضيل الرجال على النساء ، ولو قال

---

(١) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده : ج٥ ص٢٠٨ ، ٢١٢ .

«بما فضَّلهم عليهن » أو قال : « بتفضيلهم عليهن » لكان أخصر وأظهر فيما قلنا إنه المراد ، وإنما الحكمة في هذا التعبير هي عين الحكمة في قوله : ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[1] ، وهى إفادة أن المرأة من الرجل والرجل من المرأة بمنزلة الأعضاء من بدن الشخص الواحد ؛ فالرجل بمنزلة الرأس والمرأة بمنزلة البدن .

وما به الفضل قسمان : فطرى ، وكسبى ، فالفطرى هو أن مزاج الرجل أقوى وأكمل ، وأتم وأجمل ، وإنكم لتجدون من الغرابة أن أقول : إن الرجل أجمل من المرأة ، وإنما الجمال تابع لتمام الخلقة وكمالها ، وما الإنسان فى جسمه الحى إلا نوع من أنواع الحيوان ، فنظام الخلقة فيها واحد ، وإننا نرى ذكور جميع الحيوانات أكمل وأجمل من إناثها ، كما ترون فى الديك والدجاجة ، والكبش والنعجة ، والأسد واللبوة . ومن كمال خلقة الرجال وجمالها شعر اللحية والشاربين ، ولذلك يعد الأجرد ناقص الخلقة ، ويتمنى لو يجد دواء ينبت الشعر وإن كان ممن اعتادوا حلق اللحية ، ويتبع قوة المزاج وكمال الخلقة قوة العقل وصحة النظر فى مبادئ الأمور وغاياتها . ومن أمثال الأطباء والعلماء : « العقل السليم فى الجسم السليم » .. ويتبع ذلك الكمال فى الأعمال الكسبية ، فالرجل أقدر على الكسب والاختراع والتصرف فى الأمور .

﴿ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ﴾ :

---

(١) الآية ٣٢ سورة النساء .

الغيب هنا : هو ما يستحى من إظهاره . أى : حافظات لكل ما هو خاص بأمور الزوجية الخاصة بالزوجين فلا يطلع أحد منهن على شئ مما هو خاص بالزوج .

إن هذا القسم من النساء ليس للرجال عليهن شئ من سلطان التأديب ، وإنما سلطانهم على القسم الثاني الذى بينه وبين حكمه بقوله عز وجل : ﴿ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ ﴾ النشوز فى الأصل بمعنى الارتفاع ، فالمرأة التى تخرج عن حقوق الرجل قد ترفعت عليه وحاولت أن تكون فوق رئيسها ، بل ترفعت أيضاً عن طبيعتها وما يقتضيه نظام الفطرة فى التعامل ، فتكون كالناشز من الأرض الذى خرج عن الاستواء . وقد فسر بعضهم خوف النشوز بتوقعه فقط ، وبعضهم بالعلم به . ولكن يقال : لم ترك لفظ العلم واستبدل به لفظ الخوف ؟ . أو : لِمَ لم يقل واللاتى ينشزن ؟ لا جرم أن فى تعبيرالقرآن حكمة لطيفة وهى : أن الله تعالى لما كان يحب أن تكون المعيشة بين الزوجين معيشة محبة ومودة وتراض والتئام لم يشأ أن يسند النشوز إلى النساء إسناداً يدل على أن من شأنه أن يقع منهن فعلاً . بل عبر عن ذلك بعبارة تومئ إلى أن من شأنه ألا يقع لأنه خرج عن الأصل الذى يقوم به نظام الفطرة ، وتطيب به المعيشة . ففى هذا التعبير تنبيه لطيف إلى مكانة المرأة وما هو الأولى فى شأنها وإلى ما يجب على الرجل من السياسة لها وحسن التلطف فى معاملتها ، حتى إذا آنس منها ما يخشى أن يؤول إلى الترفع وعدم القيام بحقوق الزوجية

فعليه أولاً أن يبدأ بالوعظ الذى يرى أنه يؤثر فى نفسها ، والوعظ يختلف باختلاف حال المرأة فمنهن من يؤثر فى نفسها التخويف من الله ـ عز وجل ـ وعقابه على النشوز ، ومنهن من يؤثر فى نفسها التهديد والتحذير من سوء العاقبة فى الدنيا كشماتة الأعداء والمنع من بعض الرغائب كالثياب الحسنة والحلى . والرجل العاقل لا يخفى عليه الوعظ الذى يؤثر فى قلب امرأته . وأما الهجر فهو ضرب من ضروب التأديب لمن تحب زوجها ويشق عليها هجره إياها . وذهب بعض المفسرين ـ ومنهم ابن جرير الطبرى[1] ـ أن المرأة التى تنشز لا تبالى بهجر زوجها ، بمعنى إعراضه عنها ، وقالوا : إن معنى «واهجروهن» قيدوهن ، من هجر البعير : إذا شده بالهجار ـ وهو القيد الذى يقيد به ـ وليس هذا الذى قالوه بشئ ، وما هم بالواقفين على أخلاق النساء وطباعهن ، فإن منهن من تحب زوجها ، ويزين لها الطيش والرعونة النشوز عليه ، ومنهن من تنشز امتحاناً لزوجها ليظهر لها أو للناس مقدار شغفه بها وحرصه على رضاها .

إن مشروعية ضرب النساء ليست بالأمر المستنكر فى العقل أو الفطرة فيحتاج إلى التأويل ، فهو أمر يحتاج إليه فى حال فساد البيئة وغلبة الأخلاق الفاسدة ، وإنما يباح إذا رأى الرجل أن رجوع المرأة عن نشوزها يتوقف عليه. وإذا صلحت البيئة وصار النساء يعقلن النصيحة ويستجبن للوعظ ، أو يزدجرن ، فيجب الاستغناء عن الضرب ؛ فلكل حال حكم يناسبها فى

(١) انظر تفصيل ذلك فى تفسير الطبرى . ج٨ ص٢٩٨ ـ ٣١٨ .

الشــرع . ونحن مأمـورون على كل حال بالرفق بالنســاء واجتناب ظلمـهن . وإمساكهن بمعروف ، أو تسريحهن بإحـسان ، والأحاديث في الوصية بالنساء كثيرة جداً .

﴿ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً ﴾ أي : إن أطعنكم بواحدة من هذه الخصال التأديبية فلا تبـغوا بتجاوزها إلى غيرها ، فابدأوا بما بدأ الله به من الوعظ ، فإن لم يُفِـدْ فليهجر ، فإذا لم يـفد فليضرب . فإذا لم يـفد هذا أيضاً يلجـأ إلى التحكيم . ويـفهم من هذا أن القـانتات لا سـبيل عليهن حـتى في الوعظ والنصح فضلاً عن الهجر والضرب .

﴿ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً ﴾

أتى بهذا بعد النهى عن البغى لأن الرجـل إنما يبغي على المرأة بما يحسه في نفسه من الاستعلاء عليها وكونه أكبر منها وأقدر فذكره تعالى بعلوه وكبريائه وقـدرته عليه ليـتعظ ويخشع ويتقي الله فـيـها . واعلـموا أن الرجـال الذين يحاولون بظلم النساء أن يكونوا سادة في بيوتهم إنما يلدون عبيداً لغيرهم ! .

★ ★ ★

ميثاق الفطرة بين الزوجين

ويقول الله سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ ﴾

(النساء : ١٩ ـ ٢١)

ولقد فسر الأستاذ الإمام هذه الآيات فقال[١] :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا ﴾ :

كانت العرب تحتقر النساء وتعدهن من قبيل المتاع والعروض ، حتى كان الأقربون يرثون زوجة من يموت منهم كما يرثون ماله ، فحرّم الله هذا العمل من أعمال الجاهلية ، ولفظ « الكره » هنا ليس قيداً وإنما هو بيان للواقع

---

(١) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ، ج٥ ص١٩١ ـ ١٩٤ .

الذى كانوا عليه ، فإنهم كانوا يرثونهن بغير رضاهن ﴿ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ ﴾ .. ليس معنى العضل هنا ما قاله المفسر (الجلال) من أنه المنع من زواج الغير[1] ، بل معناه : لا تضاروهن ولا تضيقوا عليهن ليكرهنكم ويضطررن إلى الافتداء منكم ؛ فقد كانوا يتزوجون من يعجبهم حسنها ويزوجون من لا تعجبهم أو يمسكونها حتى تفتدى بما كانت ورثت من قريب الوارث ، أو ما كانت أخذت من صداق ونحوه ، أو المجموع من هذا وذاك ، وربما كلفوها الزيادة إن علموا أنها تستطيعها وذلك هو العضل المحرم هنا .

﴿ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ﴾ :

روى عن بعض مفسرى السلف أن الفاحشة هنا هى الزنا ، وعن بعضهم أنها النشوز ، وعن بعضهم أنها الفحش بالقول ،[2] والواجب عدم تعيينها وتخصيصها بأحد هذه الأمور ، بل تبقى على إطلاقها فتصدق بالسرقة أيضاً فإنها من الأمور الفاحشة الممقوتة عند الناس ، ولكن يعتبر فيها هذا الوصف المنصوص وهو أن تكون مبينة أى ظاهرة فاضحة لصاحبها ، وإنما اشترط هذا القيد لئلا يظلم الرجل المرأة بإصابتها الهفوة واللمم ، أو بمجرد سوء الظن والتهم ؛ فمن الرجال الغيور السيئ الظن الذى يؤاخذ المرأة بالهفوة فيعدها فاحشة، وقد حرَّم الله المضارة لأجل أن يأخذ الرجل منها بعض ما كان آتاها

---

(١) تفسير الجلالين ص٨٢ .. لأن (الجلال) هو جلال الدين السيوطى .

(٢) انظر تفسير النسفى، ج١ ص١٦٦، وتفسير البيضاوى ، ص١٣٢ وتفسير الجلالين ص٨٢.

من صداق أو غيره ، فعلم منه أن المضارة لأخذ جميع ذلك أو أكثر منه حرام بالأولى . وإنما أُبيح للرجل أن يضيق على امرأته إذا أتت بالفاحشة المبينة ؛ لأن المرأة قد تكره الرجل وتميل إلى غيره فتؤذيه بفحش من القول أو الفعل ليملها ويسأم معاشرتها فيطلقها ، فتأخذ ما كان آتاها وتتزوج آخر تتمتع معه بمال الأول ، وربما فعلت معه بعد ذلك كما فعلت بالأول ، وإذا علم النساء أن العضل والتضييق بيد الرجال مما أبيح لهم إذا هن أَهَنَّهُمْ بارتكابْ الفاحشة المبينة فإن ذلك يكفهن عن ارتكابها والاحتيال بها على أرذل الكسب .

﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾

المدار فى المعروف على ما تعرفه المرأة ولا تستنكره ، وما يليق به وبها بحسب طبقتهما فى الناس .

﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ :

إن ذكر إرادة الاستبدال مبنى على الغالب فى مثل هذه الحالة وليس شرطاً لعدم حل أخذ شئ من مال المرأة ، فإذا طلقها وهو لا يريد تزوج غيرها وإنما كره عشرتها أو اختار الوحدة وعدم التقيد بالنساء أو غير ذلك فإنه لا يحل له أخذ شئ من مالها كما يعلم من اشتراط الإتيان بفاحشة مبينة .

﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾

نكتة التعبير بقوله : (بعضكم إلى بعض) ـ أى مع كون الظاهر أن يقول : وقد أفضيتم إليهن أو أفضى أحدكم إلى الآخر ـ هى الإشارة إلى كون كل

واحد من الزوجين بمنزلة جزء من الآخر وبعضه المتمم لوجوده ، فكأن بعض الحقيقة منفصلٌ عن بعضها الآخر فوصل إليه بهذا الإفضاء واتحد به .

ثم قال : ﴿ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ .

إن هذا الميثاق الذى أخذه النساء من الرجال لابد أن يكون مناسباً لمعنى الإفضاء فى كون كل منهما من شئون الفطرة السليمة ، وهو ما أشارت إليه الآية الكريمة : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾[1] فهذه آية من آيات الفطرة الإلهية هى أقوى ما تعتمد عليه المرأة فى ترك أبويها وإخوتها وسائر أهلها والرضا بالاتصال برجل غريب عنها تساهمه السراء والضراء ، فمن آيات الله تعالى فى هذا الإنسان أن تقبل المرأة بالانفصال من أهلها ذوى الغيرة عليها لأجل الاتصال بالغريب، تكون زوجاً له ويكون زوجاً لها ، تسكن إليه ويسكن إليها ، ويكون بينهما من المودة والرحمة أقوى من كل ما يكون بين ذوى القربى . فكأنه يقول : إن المرأة لا تقدم على الزوجية وترضى بأن تترك جميع أنصارها وأحبائها لأجل زوجها إلا وهى واثقة بأن تكون صلتها به أقوى من كل صلة ، وعيشتها معه أهنأ من كل عيشة ، وهذا ميثاق فطرى من أغلظ المواثيق وأشدها إحكاماً ، إنما يفقه هذا المعنى الإنسان الذى يحس إحساس الإنسان ، فليتأمل تلك الحالة التى ينشئها الله تعالى بين الرجل وامرأته يجد أن المرأة أضعف من الرجل وأنها تقبل عليه وتسلم نفسها إليه مع علمها بأنه قادر على هضم حقوقها ،

---

(١) الروم : ٢١ .

فعلى أي شئ تعتمد فى هذا الإقبال والتسليم ؟ وما هو الضمان الذى تأخذه عليه والميثاق الذى تواثقه به ؟

ماذا يقع فى نفس المرأة إذا قيل لها : إنك ستكونين زوجاً لفلان ؟ إن أول شئ يخطر فى بالها عند سماع مثل هذا القول أو التفكير فيه ـ وإن لم تسأل عنه ـ هو أنها ستكون عنده على حال أفضل من حالها عند أبيها وأمها ، وما ذلك إلا شئ استقر فى فطرتها وراء الشهوة ، ذلك الشئ هو عقل إلهى وشعور فطرى أودع فيها ميلاً إلى صلة مخصوصة لم تعهدها من قبل ، وثقة مخصوصة لا تجدها فى أحد من الأهل ، وحنواً مخصوصاً لا تجد له موضعاً إلا البعل .

فمجموع ذلك هو الميثاق الغليظ الذى أخذته من الرجل بمقتضى نظام الفطرة الذى يوثق به ما لا يوثق بالكلام الموثق بالعهود والأيمان ، وبه تعتقد المرأة أنها بالزواج قد أقبلت على سعادة ليس وراءها سعادة فى هذه الحياة وإن لم تر من رضيت به زوجاً ، ولم تسمع له من قبل كلاماً .

فهذا ما علَّمنا الله تعالى إياه وذكرنا به ـ وهو مركوز فى أعماق نفوسنا ـ بقوله : إن النساء قد أخذن من الرجال بالزواج ميثاقاً غليظاً ، فما هى قيمة من لا يفى بهذا الميثاق وما هى مكانته من الإنسانية ؟! .

***

احترام حرية المرأة
فى اختيار الزوج

يقول الله سبحانه :

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٢٣٢) ﴾

(البقرة : ٢٣٢)

ويفسر الأستاذ الإمام هذه الآية فيقول[1] :

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ الأجل : آخر المدة المضروبة ، والمراد به انقضاء العدة لا قربها كما فى الآية التى قبلها . قال الإمام الشافعى ـ رحمه الله تعالى ـ : دل سياق الكلامين على افتراق البلوغين ، ذلك أن الإمساك بمعروف والتسريح بمعروف فى الآية السابقة لا يتأتى بعد انقضاء العدة ؛ لأن انقضاءها إمضاء للتسريح ، لا محل معه للتخيير ، وإنما التخيير يستمر إلى قرب انقضائها ، والنهى عن العضل فى هذه الآية يقتضى أن المراد ببلوغ الأجل انقضاؤه ، إذ لا محل للعضل قبله لبقاء العصمة .

---

(١) الاعمال الكاملة للإمام محمد عبده ج٤ ص٦٥٠ـ٦٥٥ .

﴿فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾ : حكم جديد غير الأحكام السابقة هو تحريم العضل ، أى منع المرأة من الزواج ، وقد كان من عادات الجاهلية أن يتحكم الرجال فى تزويج النساء ؛ إذ لم يكن يزوج المرأة إلا وليها ، فقد يزوجها بمن تكره ويمنعها ممن تحب لمحض الهوى . وقال المفسرون : إن الرجال المطلقين كانوا يفعلون ذلك : يتحكم الرجل بمطلقته فيمنعها أن تتزوج أنفة وكبراً أن يرى امرأته تحت غيره ، فكان يصد عنها الأزواج بضروب من الصد والمنع ، كما كان يراجعها فى آخر العدة لأجل العضل ، وقد أثبت الإسلام الولاية للأقربين وحرَّم العضل ، وهو المنع من الزواج ، وأن يزوج الولى المرأة بدون إذنها ، فجمع بين المصلحتين .

وقد اختلف المفسرون فى الخطاب هنا ، فقيل : هو للأزواج ، أى : لا تعضلوا مطلقاتكم أيها الأزواج بعد انقضاء العدة أن ينكحن أزواجهن . واضطر أصحاب هذا القول إلى جعل الأزواج بمعنى الرجال الذين سيكونون أزواجاً ، وقيل : هو للأزواج والأولياء على التوزيع ، وقالوا : لا بأس بالتفكيك فى الضمائر لظهور المراد وعدم الاشتباه . وقيل : للأولياء ، واستدلوا بما ورد فى سبب نزول الآية فى الصحيح : أخرج البخارى وأصحاب السنن وغيرهم بأسانيد شتى من حديث « معقل بن يسار » قال : كان لى أخت ، فأتانى ابن عم لى فأنكحتها إياه ، فكانت عنده ما كانت ، ثم طلَّقها تطليقة ولم يراجعها حتى انقضت العدة . فهويها وهويته ، ثم خطبها مع الخطاب ، فقلت له : يالكع ، أكرمتك بها وزوجتكها فطلقتها ثم جئت تخطبها ؟! والله لا ترجع إليك أبداً ، وكان رجلاً لا بأس به ، وكانت المرأة

تريد أن ترجع إليه ، فعلم الله حاجته إليها وحاجتها إلى بعلها ، فأنزل الله هذه الآية (قال) : ففيَّ نزلت ، فكفرت عن يميني وأنكحتها إياه . وفي لفظ: فلما سمعها معقل قال : سمعاً لربي وطاعة . ثم دعاه فقال : أزوجك وأكرمك . وذلك أن النبي ﷺ دعاه فتلا عليه الآية .

ومن هنا تعرف خطأ من قال إن إسناد النكاح إلى النساء هنا يفيد أنهن هن اللواتي يعقدن النكاح ، فإن هذا الإسناد يطلق في القديم والحديث على من زوجها وليها . كانوا يقولون : نكحت فلانة فلاناً كما يقولون حتى الآن : تزوجت فلانة بفلان .وإنما يكون العاقد وليها . ولم تكن أخت معقل حاولت أن تعقد على زوجها فمنعها ، وإنما طلبها الزوج منه فامتنع أن ينكحه إياها فصدق عليه أنه منعها أن تنكح زوجها ، ونزلت فيه الآية ـ وفهمها النبي ﷺ والصحابة وغيرهم من العرب كالإمام الشافعي ـ بهذا المعنى .

وفي الخطاب وجه ثالث رجحه الزمخشري وهو أنه للأمة ؛ لأنها متكافلة في المصالح العامة على حسب الشريعة ، كأنه يقول : (يا أيها الذين آمنوا إذا وقع منكم تطليق للنساء وانقضت عدتهن وأراد أزواجهن أو غيرهم أن ينكحوهن وأردن هن ذلك فلا تعضلوهن أن ينكحن) أي : لا تمنعوهن من الزواج . وعلى هذا الوجه يأخذ كل واحد حظه من الخطاب للمجموع . وتقدم لهذا الخطاب نظائر ، ومنها خطاب بني إسرائيل في عصر التنزيل بما كان من آبائهم في زمن موسى وما بعده مسنداً إليهم ، والحكمة في هذا الخطاب العام هنا أن يعلم المسلمون أنه يجب على من علم منهم بوقوع المنكر من أولياء النساء أو غيرهم أن ينهوه عن ذلك حتى يفئ إلى أمر الله ، و أنهم

إذا سكتوا على المنكر ورضوا به يأثمون ، والسر فى تكافل الأمة أن الأفراد إذا وكلوا إلى أنفسهم فكثيراً ما يرجحون أهواءهم وشهواتهم على الحق والمصلحة ، ثم يقتدى بعضهم ببعض مع عدم النكير ، فيكثر الشر والمنكر فى الأمة فتهلك ؛ ففى التكافل والتعاون على إزالة المنكر دفاع عن الأمة ، ولكل مكلف حق فى ذلك ؛ لأن البلاء إذا وقع فإنه يصيبه سهم منه . قال تعالى : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩) ﴾(١) .

ثم قال : ﴿ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ﴾ أى : إذا تراضى مريدو التزوج من الرجال والنساء . بأن رضى كل من الرجل والمرأة بالآخر زوجاً . وقوله : (بينهم) يشعر بأن لا نُكُرَ فى أن يخطب الرجل المرأة إلى نفسها ويتفق معها على التزوج بها ، ويحرم حينئذ عضلها ، أى امتناع الولى أن يزوجها منه ، إذا كان ذلك التراضى فى الخطبة بالمعروف شرعاً وعادة ، بأن لا يكون هناك محرم ولا شئ يخل بالمروءة ويلحق العار بالمرأة وأهلها ، وقد استدل الفقهاء بهذا على أن العضل من غير الكفء غير محرم ، كأن تريد الشريفة فى قومها أن تتزوج برجل خسيس يلحقها منه الغضاضة ، ويمس ما لقومها من الشرف والكرامة ، فينبغى أن تصرف عنه بالوعظ والنصيحة . ويجوز بعض الفقهاء العضل إذا كان المهر دون المثل . وعندى أنه إذا أرادت

---

(١) المائدة : ٧٨ ، ٧٩ .

المرأة أن تتزوج بأقل من مهر مثلها ، ولم يكن الحامل على ذلك فساد الأخلاق المسقط للكرامة ، أو اتباع الهوى وإرضاء الشهوة بل كان ميلاً إلى رجل مستقيم يرجى منه حسن العشرة وصلاح المعيشة إلا أنه يعسر عليه دفع مهر كثير مع نفقات الزواج الأخرى ، فلا يجوز حينئذ العضل بل يجب تزويجه .

﴿ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ :

الوعظ : النصح والتذكير بالخير والحق على الوجه الذي يرق له القلب ويبعث على العمل . أى : ذلك الذي تقدم من الأحكام والحدود المقرونة بالحكم والترغيب والترهيب يوعظ به أهل الإيمان بالله والجزاء على الأعمال فى الآخرة ، فإن هؤلاء هم الذين يتقبلونه ويتعظون به فتخشع له قلوبهم ، ويتحرون العمل به قبولاً لتأديب ربهم ، وطلباً للانتفاع به فى الدنيا، ورجاء فى مثوبته ورضوانه فى الآخرة ، وأما الذين لا يؤمنون حق الإيمان كالمعطلين والمقلدين الذين يقولون آمنًا بأفواههم لأنهم سمعوا قومهم يقولون ذلك ولم تؤمن قلوبهم لأنهم لم يتلقوا أصول الإيمان بالبرهان الذى يملك من القلب مواقع التأثير ومسالك الوجدان ، فإن وعظهم به عبث لا ينفع ، وقول لا يسمع ؛ لأنهم يتبعون فى معاملة النساء أهواءهم ، ويقلدون ما وجدوا عليه آباءهم وعشراءهم .

والآية تدل على أن الإيمان الصحيح يقتضى العمل ، وقد غفل عن هذا الأكثرون ، وقرره الأئمة المحققون ، كأنه يقول : من كان مؤمناً فلا شك أنه يتعظ بهذا ، يشير إلى أن من لم يتعظ ويعمل بها فليس بمؤمن . وتدل على أن

أحكام الدين ـ حتى المعاملات منها ـ ينبغى أن تساق إلى الناس مساق الوعظ المحرك للقلوب ، لا أن تسرد سرداً جافاً كما ترى فى كتب الفقه .

﴿ ذَلِكُمْ أَزْكَي لَكُمْ وَأَطْهَرُ ﴾ الزكاة : النماء والبركة فى الشئ ، والمشار إليه فى (ذلكم) هو النهى عن عضل النساء بقيده وشرطه ، والمراد أنه مزيد فى نماء متبعيه وصلاح حالهم ما بعده مزيد يفضله ، وأنه أطهر لأعراضهم وأنسابهم ، وأحفظ لشرفهم وأحسابهم ؛ لأن عضل النساء والتضييق عليهن مدعاة لفسوقهن ، ومفسدة لأخلاقهن ، وسبب لفساد نظام البيوت وشقاء الذرارى ؛ مَثِّلْ فى نفسك حال امرأة كأخت « معقل بن يسار » تزوجت برجل عرفها وعرفته ، فأحبها وأحبته ، ثم غضب مرة وطلقها ، وبعد انقضاء العدة ندم على ما فعل ، وأحب أن يعود إلى امرأته التى تحبه ، واعتادت الأنس به والسكون إليه ، فعضلها وليها اتباعاً لهواه ، واعتزازاً بسلطته ، ألا يكون ذلك مضيعة لولدهما ومغواة لهما ؟ ومثل أيضاً ولياً يمنع موليته من الزواج بمن تحب ويزوجها ممن تكره اتباعاً لهواه أو عادة قومه ، كما كانت العرب تفعل ، وانظر أترجو أن يصلح حالهما ، ويقيما حدود الله بينهما ؟ أم يخشى أن يغويها الشيطان بالآخر ويغويه بها ، ويستدرجها فى الغواية فلا يقفان إلا عند نهاية حدودها ؟ وهكذا مثل كل مخالفة لهذه الأحكام تجدها مفسدة .

وقد كان الناس ـ لجهلهم بوجوه المصالح الاجتماعية على كمالها ـ لا يرون للنساء شأناً فى صلاح حياتهم الاجتماعية وفسادها ، حتى علَّمهم الوحى ذلك ، ولكن الناس لا يأخذون من الوحى فى كل زمان إلا بقدر

استعدادهم ، وإن ما جاء به القرآن من الأحكام لإصلاح حال البيوت بحسن معاملة النساء لم تعمل به الأمة على وجه الكمال ، بل نسيت معظمه فى هذا الزمان وعادت إلى جهالة الجاهلية .

ولهذا الجهل السابق ولتوهم الذين يسيئون معاملة النساء من الرجال أنهم يفعلون ما هو مصلحة لهم ومحافظة على شرفهم ، ختم هذه المواعظ والأحكام والحكم بقوله :

﴿ واللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ أى : يعلم سبحانه ما لكم فى ذلك من الزكاة والطهر وسائر المصالح ودفع المفاسد ، وأنتم لا تعلمون ذلك كله علماً صحيحاً خالياً من الأهواء والأوهام ، واعتزاز الرجال بقدرتهم على التحكم فى النساء ، ولذلك ذكرهم فى أثر النهى فى عضل النساء عن الزواج بهذه الثلاث :

١ ـ إنها موعظة يتعظ بها من يؤمن بالله واليوم الآخر .

٢ ـ إنها أزكى لكم وأطهر لأعراضكم .

٣ ـ إن الله يعلم كل ذلك كغيره وأنتم لا تعلمون .

وهذه آيات علمه ظاهرة ، فإن البشر من جميع الأمم ـ لا من العرب وحدهم ـ لم يهتدوا إلى هذه الأحكام المنزلة فى هذه السورة النافعة باختبارهم الطويل ، بل عزبت حكمتها عن نفوس الأكثرين بعد أن نزل الوحى بها فلم يعملوا بها ، وكان يجب على المؤمن الذكى أن يقيمها على وجهها ملاحظاً فوائدها ، وعلى المؤمن الغبى أن يسلم أمر ربه تسليماً ، وإن لم تظهر له فائدتها فى الدنيا ، اكتفاء بأن الله تعالى يعلم من ذلك ما لا يعلم هو .

والذين يجهلون هذه المزية لهداية الدين - من غير أهله - يفضلون هداية الحكمة البشرية عليها بأن متبعها يترك الشر لأنه شر ضار، ويفعل الخير لأنه خير نافع، وإن متبع الدين يفعل ما لا يعقل له فائدة. وهذا غلط أو مغالطة؛ فإن الدين قد جاء بالحكمة مؤيدة للكتاب، كما قال: ﴿ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾(1)، فمن جمع بين الكتاب والحكمة فهو المؤمن الكامل، ومن عجز عن فهم حكمة الأحكام والآداب فيه من عامي وبليد أو حديث عهد بالإسلام لم يفته - وقد هدى إلى الإيمان - أن يترك الشر ويفعل الخير؛ لأن الذي نهاه عن الأول وأمره بالثاني هو الله، وهو أعلم منه ومن كل حكماء خلقه.

***

(1) آل عمران: ١٦٤، الجمعة: ٢.

نصوص الأستاذ الإمام

عن رأى الإسلام فى :

تقييد حق الطلاق

- تفسير آية التحكيم ...
- فتوى فى : دور التحكيم والقضاء عند سوء العشرة .
- يمين الإيلاء ...
- إرجاع الزوج مطلقته ...
- النهى عن الإضرار بالنساء ...

التحكيم
واجب الدولة والمجتمع

يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ﴾

(النساء : ٣٥)

ويفسر الأستاذ الإمام هذه الآية فيقول :(١)

الخطاب للمؤمنين ، ولا يتأتى أن يكلف كل واحد أو كل جماعة منهم ذلك ، ولذلك قال بعض المفسرين : إن الخطاب هنا موجه إلى من يمكنه القيام بهذا العمل ممن يمثل المسلمين ، وهم الحكام ، وقال بعضهم : إن الخطاب عام ، ويدخل فيه الزوجان وأقاربهما ، فإن قام به الزوجان أو ذوو القربى أو الجيران فذاك ، وإلا وجب على من بلغه أمرهما من المسلمين أن يسعى في إصلاح ذات بينهما بذلك(٢) ، وكلا القولين وجيه ، فالأول يكلف الحكام ملاحظة أحوال العامة والاجتهاد في إصلاح أحوالهم ، والثاني يكلف

(١) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ، ج٥ ص٢١١ - ٢١٣ .
(٢) انظر الرأيين في تفسير البيضاوي ص١٣٧ .

كل المسلمين أن يلاحظ بعضهم شئون بعض ويعينه على ما تحسن به حاله .

واختلفوا في وظيفة الحكمين ، فقال بعضهم : إنهما وكيلان لا يحكمان إلا بما وكلا به . وقال بعضهم : إنهما حاكمان . روى الشافعي في (الأم) ، والبيهقي في (السنن) وغيرهما عن عبيدة السلماني قال : « جاء رجل وامرأة إلى علي - كرَّم الله تعالى وجهه - ومع كل واحد منهما فئام[1] من الناس ، فأمرهم عليٌّ أن يبعثوا رجلاً حكماً من أهله ورجلاً حكماً من أهلها ، ثم قال للحكمين : « تدريان ما عليكما ؟ عليكما إن رأيتما أن تجمعا أن تجمعا ، وإن رأيتما أن تفرقا أن تفرقا » قالت المرأة : رضيت كتاب الله تعالى بما عليَّ به ولي . وقال الرجل : أما الفرقة فلا . فقال علي : كذبت - والله - حتى تقر بمثل الذي أقرت به » وروى ابن جرير عن ابن عباس - ﷺ - أنه قال في هذه الآية[2] : هذا في الرجل والمرأة إذا تفاسد الذي بينهما ، أمر الله تعالى أن يبعثوا رجلاً صالحاً من أهل الرجل ورجلاً مثله من أهل المرأة فينظران أيهما المسئ ، فإن كان الرجل هو المسئ حجبوا عنه امرأته وقسروه على النفقة ، وإن كانت المرأة هي المسيئة قسروها على زوجها ومنعوها النفقة ، فإن اجتمع أمرهما على أن يفرقا أو يجمعا فأمرهما جائز ، فإن رأيا أن يجمعا فرضي أحد الزوجين وكره ذلك الآخر ثم مات أحدهما فإن الذي رضي يرث الذي كره ، ولا يرث الكاره الراضي » .

وقوله : ﴿ إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ﴾ يشعر بأنه يجب على

---

(١) الفئام : الجماعة من الناس .

(٢) تفسير الطبري ، جـ٨ ص٣٢٥ ، ٣٢٦ .

الحكمين ألا يدخرا وسعاً فى الإصلاح ، كأنه يقول : إن صحت إرادتهما فالتوفيق كائن لا محالة . وهذا يدل على نهاية العناية من الله تعالى فى إحكام نظام البيوت الذى لا قيمة له عند المسلمين فى هذا الزمان ، وانظروا كيف لم يذكر مقابل «التوفيق » بينهما وهو « التفريق » عند تعينه ، لم يذكره حتى لا يذكَّر به لأنه يبغضه ، وليشعر النفوس أنه ليس من شأنه أن يقع . وظاهر الأمر أن هذا التحكيم واجب ، لكنهم اختلفوا فيه ، فقال بعضهم : إنه واجب ، وبعضهم : إنه مندوب ، واشتغلوا بالخلاف والجدل ، تعصبت كل طائفة من المسلمين لقول واحد من المختلفين ، مع عدم العناية بالعمل به ، فها هم أولاء قد أهملوا هذه الوصية الجليلة لا يعمل بها أحد على أنها واجبة ولا على أنها مندوبة ، والبيوت يدب فيها الفساد ، فيفتك بالأخلاق والآداب ، ويسرى من الوالدين إلى الأولاد .

﴿ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً ﴾ :

أى أنه كان ـ فيما شرعه لكم من هذا الحكم ـ عليماً بأحوال العباد وأخلاقهم وما يصلح لهم ، خبيراً بما يقع بينهم وبأسبابه الظاهرة والباطنة ، فلا يخفى عليه شئ من وسائل الإصلاح بينهما ، وإنى لأكاد أبصر الآية الحكيمة تومئ بالاسمين الكريمين إلى أن كثيراً من الخلاف يقع بين الزوجين فيظن أنه مما يتعذر تلافيه ، وهو فى الواقع ونفس الأمر ناشئ عن سوء التفاهم لأسباب عارضة ، لا عن تباين فى الطباع أو عداوة راسخة ، وما كان كذلك يسهل على الحكمين الخبيرين بدخائل الزوجين ـ لقربهما منهما ـ أن يمحصا ما علق من أسبابه فى قلوبهما ، متى حسنت النية وصحت الإرادة .

إن الزوجية أقوى رابطة تربط اثنين من البشر أحدهما بالآخر ، فهى الصلة التى بها يشعر كل من الزوجين بأنه شريك الآخر فى كل شئ ، مادى ومعنوى ، حتى إن كل واحد منهما يؤاخذ الآخر على دقائق خطرات الحب ، وخفايا خلجات القلب ، ويستشفها من وراء الحجب ، أو توحيها إليه حركات الأجفان ، أو يستنبطها من فلتات اللسان إذا لم تصرح بها شواهد الامتحان ، فهما يتغايران فى أخفى ما يشتركان فيه ، ويكتفيان بشهادة الظنة والوهم عليه ، فيغريهما ذلك بالتنازع فى كل ما يقصر فيه أحدهما من الأمور المشتركة بينهما ، وما أكثرها وأعسر التوقى منها ، فكثيراً ما يفضى التنازع إلى التقاطع ، والتغاير إلى التدابر ، فإن تعاتبا فجدل ومراء ، لا استعتاب واسترضاء ، حتى يحل الكره والبغضاء محل الحب والهناء ؛ لذلك يصح لك أن تحكم - إن كنت عليماً بالأخلاق والطباع ، خبيراً بشئون الاجتماع - بأن تلك الحكمة التى أرسلها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - هى القاعدة الثابتة الصحيحة فى جميع الأمم وجميع الأعصار ، وأنها يجب أن تكون فى محل الذكرى من الحكمين اللذين يريدان إصلاح ما بين الزوجين ، كما يجب أن يعرفها ولا ينساها جميع الأزواج .. تلك الحكمة هى قوله للتى صرّحت بأنها لا تحب زوجها : « إذا كانت إحداكن لا تحب أحدنا فلا تخبره بذلك ، فإن أقل البيوت ما بنى على المحبة ، وإنما يعيش - (أو قال يتعاشر) - الناس بالحسب والإسلام » أى أن حسب كل من الزوجين وشرفه إنما يحفظ بحسن عشرته للآخر ، وكذلك الإسلام يأمرهما بأن يتعاشرا بالمعروف .

قد اهتدى الإفرنج إلى العمل بهذه الحكمة البالغة بعد أن استبحر علم

النفس والأخلاق وتدبير المنزل عندهم ، فربوا نساءهم ورجالهم على احترام رابطة الزوجية ، وعلى أن يجتهد كل من الزوجين أن يعيشا بالمحبة ، فإن لم يسعدا بها فليعيشا بالحسب ، وهو تكريم كل منهما للآخر ومراعاة لشرفه وقيامه بما يجب له من الآداب والأعمال التي جرى عليها عرف أمتهم ، ثم يعذره فيما وراء ذلك ، وإن علم أنه لا يحبه فلا يذكر له ذلك ، وقد صرحوا بأن سعادة المحبة الزوجية الخالصة قلما تمتع بها زوجان ، وإن كانت أمنية كل الأزواج ، وإنما يستبدلون بها المودة العملية . ولكنهم بإباحة المخالطة والتبرج قد أفرطوا في إرخاء العنان ، حتى صار الأزواج يتسامحون في السفاح أو اتخاذ الأخدان ، وهذا ما يعصم مجموع أمتنا منه الإسلام .

★ ★ ★

سلطة القاضى والحكمين

(فتوى التطليق على الزوج بواسطة التحكيم والقضاء فى حالة سوء العشرة)(١)

سوء المعاشرة :

ـ إذا اشتد النزاع بين الزوجين ولم يمكن انقطاعه بينهما بطريقة من الطرق المنصوص عليها فى كتاب الله تعالى رفع الأمر إلى قاضى المركز ، وعليه ـ عند ذلك ـ أن يعين حكمين عادلين ، أحدهما من أقارب الزوج والثانى من أقارب الزوجة ، والأفضل أن يكونا جارين ، فإن تعذر العدول من الأقارب فإنه يعينهما من الأجانب ، وأن يبعث بهما إلى الزوجين ، فإن أصلحاهما فبها ، وإلا حكما بالطلاق ورفعا الأمر إليه ، وعند ذلك عليه أن يقضى بما حكما به ، ويقع التطليق فى هذه الحالة طلقة واحدة بائنة ، ولا يجوز للحكمين الزيادة عليها .

---

(١) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ، ج٦ « ملحق الفتاوى » ص٣٨٣ ، ٣٨٤ ولقد اخترنا هنا المادة العاشرة والحادية عشرة من مشروع القانون الذى وضعه الأستاذ الإمام ، وهما المادتان اللتان يعالج فيهما دور التحكيم والقاضى فى حالة استحكام سوء العشرة بين الزوجين ، وتاريخ وضع الإمام لمشروع القانون هذا هو ٥ ربيع الثانى سنة ١٣١٨هـ (٣ أغسطس سنة ١٩٠٠م) .

- للزوجة أن تطلب من القاضي التطليق على الزوج إذا كان يصلها منه ضرر ، والضرر : هو ما لا يجوز شرعاً كالهجر بغير سبب شرعي ، والضرب ، والسب بدون سبب شرعي ، وعلى الزوجة أن تثبت كل ذلك بالطرق الشرعية .

* * *

يمين الإيلاء

يقول الله سبحانه :

﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢٦) وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٧) ﴾

(البقرة : ٢٢٦ ، ٢٢٧)

ويفسر الأستاذ الإمام هذه الآيات فيقول :[١]

﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ﴾ إلخ .

فالإيلاء من المرأة أن يحلف الرجل إنه لا يقربها ، وهو مما يكون من الرجال عند المغاضبة والغيظ ، وفيه امتهان للمرأة وهضم لحقها وإظهار لعدم المبالاة بها ، فترك المقاربة الخاصة المعلومة ـ ضراراً ـ معصية ، والحلف عليه حلف على ما لا يرضى الله تعالى به لما فيه من ترك التواد والتراحم بين الزوجين وما يترتب على ذلك من المفاسد فى أنفسهما وفى عيالهما وأقاربهما ، إنه يجب على المؤلى أن يحنث ويكفر عن يمينه ، ولكنه إذا لم يفعل هذا الواجب لم يكن آثماً فى نفسه فقط ، فيقال : حسبه ما يلقى من جزاء إثمه ، بل يكون بإثمه هاضماً لحق امرأته ، ولا يبيح له العدل هذا

---

(١) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ، ج٤ ص٦٢٤ ، ٦٢٥ .

الهضم والظلم ، ولذلك أنزل الله فيه هذا الحكم ، وهو التربص مدة أربعة أشهر ، وقد قيل : إن هذه المدة التى لا يشق على المرأة البعد فيها عن الرجل ، وهى كافية لتروى الرجل فى أمره ورجوعه إلى رشده .

﴿ فَإِن فَاءُوا ﴾ أى : رجعوا إلى نسائهم بأن حنثوا فى اليمين وقاربوهن فى أثناء هذه المدة أو آخرها .

﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ يغفر لهم ما سلف برحمته الواسعة ؛ لأن الفيئة توبة فى حقهم .

﴿ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ ﴾ أى : صمموا قصده وعزموا على ألا يعودوا إلى ملامسة نسائهم .

﴿ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أى : فليراقبوا الله تعالى عالمين أنه سميع لإيلائهم وطلاقهم ، عليم بنيتهم فيه ، فإن كانوا يريدون به إيذاء النساء ومضارتهن فهو يتولى عقابهم . وإن كان لهم عذر شرعى بأن كان الباعث على الإيلاء تربية النساء لأجل إقامة حدود الله ، وعلى الطلاق اليأس من إمكان المعاشرة بالمعروف ، فهو يغفر لهم . والمعنى أن من حلف على ترك غشيان امرأته فلا يجوز له أن يتربص أكثر من أربعة أشهر ، فإن تاب وعاد قبل انقضائها لم يكن عليه إثم ، وإن أتمها تعين عليه أحد الأمرين : الفيئة والرجوع إلى المعاشرة الزوجية أو الطلاق ، وعليه أن يراقب الله تعالى فيما يختاره منهما ، فإن لم يطلق هو بالقول كان مطلقاً بالفعل ، أى أنها تطلق منه بعد انتهاء المدة رغم أنفه منعاً للضرار ، وقيل : ترفع أمرها إلى الحاكم فيطلق

عليه ، والمسألة خلافية فى هذا ، ولكن لا خلاف فى عدم جواز بقائها على عصمته وعدم إباحة مضارتها .

وقد فضَّل الله تعالى الفيئة على الطلاق ، إذ جعل جزاء الفيئة المغفرة والرحمة ، وهدى إلى مراقبته فى العزم على الطلاق ، وذكر المؤلى بسمعه تعالى لما يقول ، وعِلمه بما يسره فى نفسه ويقصده من عمله .

هذا حكم الإيلاء من المرأة إذا أطلقه الزوج فلم يذكر زمناً ، أو قال : لا أقربك مدة كذا ، وذكر أكثر من أربعة أشهر ، فإن ذكر مدة دون أربعة أشهر فلا يلزمه شئ إذا أتمها ، وفى الأربعة خلاف .

★ ★ ★

إرجاع الزوج مطلقته

يقول الله سبحانه :

﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ وَلا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاحًا ﴾

(البقرة : ٢٢٨)

ويفسر الأستاذ الإمام رد الزوج لزوجته المطلَّقة أثناء عدتها فيقول :[١]

﴿ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاحًا ﴾ : هذا لطف كبير من الله ـ سبحانه وتعالى ـ وحرص من الشارع على بقاء العصمة الأولى ؛ فإن المرأة إذا طلقت لأمر من الأمور سواء كان بالإيلاء أو غيره فقلما يرغب فيها الرجال ، وأما بعلها المطلق فقد يندم على طلاقها ، ويرى أن ما طلقها لأجله لا يقتضي مفارقتها دائماً ، فيرغب في مراجعتها ، ولا سيما إذا كانت العشرة السابقة بينهما جرت على طريقتها الفطرية ، فأفضى كل منهما إلى

---

(١) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ج٤ ص٦٢٩ ، ٦٣٠ .

الآخر بسره حتى عرف عجره وبجره[1] ، وتمكنت الألفة بينهما على علاتهما. وإذا كانا قد رزقا الولد فإن الندم على الطلاق يسرع إليهما ؛ لأن الحرص الطبيعي على العناية بتربية الولد وكفالته بالاشتراك تغلب بعد زوال أثر المغاضبة العارضة على النفس ، وقد يكون أقوى إذا كان الأولاد إناثاً ؛ لهذا حكم الله تعالى لطفاً منه بعباده بأن بعل المطلقة (أى زوجها) أحق بردها فى ذلك ، أى : فى زمن التربص، وهى العدة . وفى هذا بيان حكمة أخرى للعدة غير تبين الحمل أو براءة الرحم ، وهى إمكان المراجعة ، فعلم بذلك أن تربص المطلقات بأنفسهن فيه فائدة لهن وفائدة لأزواجهن ، وإنما يكون بعل المرأة أحق بها فى مدة العدة إذا قصد إصلاح ذات البين وحسن المعاشرة ، وأما إذا قصد مضارتها ومنعها من التزوج بعد العدة حتى تكون كالمعلقة ، لا يعاشرها معاشرة الأزواج بالحسنى ولا يمكنها من التزوج ، فهو آثم بينه وبين الله تعالى بهذه المراجعة ، فلا يباح للرجل أن يرد مطلقته إلى عصمته إلا بإرادة إصلاح ذات البين ونية المعاشرة بالمعروف .

★ ★ ★

(١) أى عيوبه الظاهرة والخفية ، وكذلك تعنى الأحزان .

النهى عن الإضرار بالنساء

يقول الله سبحانه :

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٣١) ﴾

(البقرة : ٢٣١)

ويفسر الأستاذ الإمام هذا النهى عن الإضرار بالزوجة فيقول :(١)

﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا ﴾ : هذا وعيد بعد وعيد ، وتهديد لمن يتعدى حدود الله فى هذه الأحكام أى تهديد ، والسبب فيه حمل المسلمين على احترام صلة الزوجية ، وتوقى ماكانوا عليه فى عهد الجاهلية ، فقد كانوا يتخذون النساء لعباً ، ويعبثون بطلاقهن وإمساكهن عبثاً .

وفى أسباب النزول : أخرج ابن أبى عمر فى مسنده ، وابن مردويه عن أبى

---

(١) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ، ج٤ ص٦٤٧ ـ ٦٥٠ .

الدرداء قال : كان الرجل يطلق ثم يقول : لعبت ، ويعتق ثم يقول : لعبت ، فأنزل الله ﴿ وَلا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا ﴾ أى أنزله فيما أنزل من آيات أحكام الطلاق .

والمعنى : لا تتهاونوا بحدود الله تعالى التى شرعها لكم فى آيه جرياً على سنن الجاهلية ، فإن هذا التهاون والاعتداء للحدود ـ بعد هذا البيان والتأكيد من الله تعالى ـ يعد استهزاء بآياته . ومن هنا قال بعض السلف : المستغفر من الذنب وهو مصر عليه كالمستهزئ بربه . ولا شك أن الذى يخالف أمر الله وينقض هذه العهود بعد توثيقها طلباً لشهوة من شهواته ، أو استمساكاً بعادة من عاداته ، فهو جدير بأن يعد مستهزئاً بآيات الله غير مذعن لها .

بعد التحذير من التهاون بحقوق النساء وجعل العابث بأحكام الله فيها مستهزئاً بآياته ـ وفى ذلك من الوعيد والترهيب ما فيه ـ أراد تعالى أن يقرر هذه الأحكام فى النفوس بباعث الترغيب فيها بالتذكير بفوائدها ومزاياها ، وبيان المنة فى هداية الدين التى هى منها ، فقال :

﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ ﴾ : أى امتثلوا ما ذكر آنفاً من أمر ونهى ، وتذكروا نعمة الله تعالى عليكم بالفطرة السليمة فى الرابطة الزوجية المعبر عنها بقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[1] ، وما أنزله عليكم من آيات

---

(١) الروم : ٢١ .

الأحكام المكملة للفطرة فى الزوجية والحكمة فيها ، حال كونه يعظكم بالجمع بينهما ، فإن معرفة الشئ مع حكمته هى التى تحدث العظة والعبرة الباعثة على الامتثال ، ولا يبعد أن تكون هذه الآيات النفسية هى المرادة بقوله تعالى : ﴿ وَلا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا ﴾ .

وقد أفسد على الناس تلك المودة والرحمة ، وحجبهم عن الموعظة بالحكمة ، وأضعف فى نفوس الأزواج ذلك السكون والارتياح ، غرور الرجال بالقوة وطغيانهم بالغنى ، وكفران النساء لنعمة الرجال وحفظ سيئاتهم ، وتماديهن فى الذم لها والتبرم بها ، وما مضت به عادات الجاهلية فى بعض المتقدمين وعادات الفرنج فى المعاصرات والمعاصرين ، وقلد به الناس بعضهم بعضاً ، والله سبحانه وتعالى ذكرنا :

أولاً : بنعمته علينا فى أنفسنا لنزيح عن الفطرة السليمة ما غشيها بسوء القدوة واتباع الهوى ، ونشكرها له سبحانه بالمحافظة عليها بتمكين صلة الزوجية واحترامها وتوثيقها .

وثانياً : بهذا الدين القويم الذى هدانا إلى ذلك ، وَحَدَّ لنا كتابه الحدود ووضع الأحكام مبيناً حكمها وأسرارها ، مؤيداً لها بالوعظ السائق إلى اتباعها ، وما ذكرنا بالكتاب هنا إلا لنجعله إماماً لنا فى تقويم الفطرة ، على ما مضت به السنة وعززته الحكمة ، ولكنا قد أعرضنا عنه ، فمن نظر فى شئ من هذه الأحكام فإنما ينظر فيما كتبه بعض البشر مما هو خلو من حكمة التشريع ، غير مقرون بشىء من الترغيب والترهيب ، فهو لا يحدث للنفوس عظة ولا ذكرى ، ولا يبعث فى القلوب هداية ولا تقوى ، على أن أكثر المسلمين لا

ينظر فيها ، ولا يسأل العارفين بها عنها ، إلا أن يكون لأجل الاستعانة على حقوق يهضمها ، أو صلات يقطعها وعرى يفصمها ، فهو يستفتى غالباً ليأمن مؤاخذة الحكام ، لا ليقيم حدود الإسلام ، وإذا قام فيهم داعٍ يدعو إلى الله ، ويذكر المؤمنين بآيات الله ، رماه الرؤساء بسهام الملام ، وأغروا به الساسة وأهاجوا عليه العوام ، خائفين أن يحيى ما أماتوه من الاجتهاد فى فهم الكتاب والسنة ، زاعمين أنه يبطل مذاهب الأئمة ، على أن التذكير هو الذى يحيى علم المجتهدين ، لأنهم كانوا مذكرين به ومبينين ، لا صادين عنه ولا ناسخين ، وما كل من اهتدى بهديهم فى التذكير والتبيين ، يلحقهم فى الاستنباط والتدوين . فيا أيها العلماء أحيوا كتاب الله ، فوالله إنه لا حياة لهذه الأمة بسواه ، ولذلك عادت بترك هديه إلى عادات الجاهلية ، وما هو شر منها من إباحة الإفرنج العصرية ، اتباعاً للهوى ونزعات البهيمية .

هذا ، وإن جمهور المفسرين فسروا نعمة الله هنا بالدين والرسالة ، وجعلوا ما أنزل من الكتاب والحكمة تفصيلاً للنعمة المجملة .

﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ : بإرسال هذا الرسول ، وبيان الحدود والحقوق التى تحفظ لكم الهناء فى الدنيا . وتضمن لكم السعادة فى الآخرة . وما بعد هذا تفصيل له . والحكمة : هى سر الكتاب . وفى النعمة وجه آخر وهى هذه الرحمة التى جعلها الله بين الرجال والنساء ، وامتن بها علينا فى قوله ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ وإنما أوردنا هذا الوجه أولاً بالبيان والتفصيل ؛ لأنه هو المختار عندنا ، وذهب بعضهم إلى أن النعمة هنا عامة تشمل نعم الدنيا والدين .

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ : أمر بعد كل ما تقدم من التأكيد والتشديد بتقواه بامتثال أمره ونهيه ، زيادة فى العناية بأمر النساء وصلة الزوجية ، وهو ما تقتضيه البلاغة فى هذا المقام ، مقاومة لما ملك النفوس قبل ذلك من عدم المبالاة بعقد الزوجية ، إذ كانوا يرونه كعقد الرق والبيع والإجارة فى المتاع الخسيس والنفيس ، بل كانوا يرونه دون ذلك ؛ لأن الرجل لم يكن يشترى متاعاً ثم يرمى به فى الطريق زهداً فيه ، ولم يكن يمسك قِنَّهُ ليعذبه وينتقم منه ، ولكنهم كانوا يطلقون المرأة لأدنى سبب ، كالملل والغضب ، ثم يعودون إليها ، يفعلون ذلك المرة بعد المرة ، وكانوا يمسكونها للضرار والإهانة ، كما تقدم آنفاً ، وقد يستبدل الواحد منهم امرأة الآخر بامرأته ، فاعتياد هذه المعاملة السوأى والأنس بها لا تكون مقاومته إلا بتعظيم شأن عقد الزوجية والمبالغة فى تأكيده بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد ، إذ لا يسهل على الرجل الذى كان يرى المرأة مثل الأمة أو دونها أن يساويها بنفسه بمجرد الأمر ، ويرى لها عليه مثل ما له عليها ، ويحظر على نفسه مضارتها وإيذاءها ، ويلتزم معاملتها بالمعروف فى حال إمساكها عنده ، وفى حال تسريحها إن اضطر إليه ولكن هذه العظات والتشديدات المشتملة على الإقناع وبيان المصلحة هى التى تعمل فى نفسه ، وتؤثر بتكرارها فى قلبه ، وإن كان كالحجارة فى القسوة .

أما ترى الحبل بتكراره ... فى الصخرة الصماء قد أثرا

نعم إنه قد كان له أحسن التأثير فى أولئك الخارجين من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام ، وفيمن اتبعهم بإحسان ، ثم خلف من بعدهم خلف

أعرضوا عن القرآن ، وجهلوا ما فيه من الحكم والأحكام ، حتى صاروا شراً مما كان عليه أهل الجاهلية وسائر الأمم من ظلم النساء ، فلم يتقوا الله في ذلك ولا تدبروا قوله بعد ما تقدم .

وقوله ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ : هو أبلغ في موضعه من كل ما تقدم من التأكيد والتشديد في حقوق النساء ؛ لأن الإنسان قد يراعي الأحكام الظاهرة بقدر الإمكان بغير إخلاص ، فيطبق العمل على الحكم على وجه يعلم أن من ورائه ضرراً ، فهذه الجملة تذكره بأن الله تعالى لا يخفى عليه شئ مما يسره العبد أو يعلنه ، فلا يرضيه إلا التزام حدوده والعمل بأحكامه ، مع الإخلاص وحسن النية ، حتى يكون ظاهره كباطنه في الخير ، ولا يتم له ذلك إلا بمراقبة الله تعالى في عمله ، والعلم اليقين بأنه مطلع عليه فيه : لا يبيت قولاً أو فعلاً ، ولا ينوي خيراً أو شراً ، ولا يطوف في ذهنه خاطر ، ولا تختلج في قلبه خلجة ، إلا وهو سبحانه عالم بذلك ومطلع عليه ، فلا طريق له إلى مرضاة ربه إلا بتطهير قلبه ، وإخلاص نيته في معاملة زوجه ، وفي سائر المعاملات ، ومن حسنت نيته حسن عمله غالباً ، بل كان موفقاً دائماً .

* * *

نصوص الأستاذ الإمام

عن رأى الإسلام فى :

تعدد الزوجات

- فتوى عن التعدد ..
- تفسير آية القرآن التى وردت فى التعدد .
- مقال عن : حكم الشريعة فى تعدد الزوجات .

فتوى فى تعدد الزوجات(*)

السؤال الأول :

« ما منشأ تعدد الزوجات فى بلاد العرب (أو في الشرق على الجملة) قبل بعثة النبى ﷺ ؟؟ » .

الجواب :

ليس تعدد الزوجات من خواص المشرق ، ولا وحدة الزوجة من خواص المغرب ، بل فى المشرق شعوب لا تعرف تعدد الزوجات كالتبت والمغول ، وفى الغرب شعوب كان عندها تعدد الزوجات كالغولو والجرمانيين .. ففى زمن « سيزار » كان تعدد الزوجات شائعاً عند الغولو ، وكان معروفاً عند الجرمانيين فى زمن « تاسيت » ، بل أباحه بعض البابوات لبعض الملوك بعد دخول الدين المسيحى إلى أوروبا كشرلمان ملك فرنسا ، وكان ذلك بعد الإسلام .

كان الرؤساء وأهل الثروة يميلون إلى تعدد الزوجات فى بلاد يزيد فيها

(*) نشر (المنار) هذه الفتوى الهامة للأستاذ الإمام فى الجزء الأول من المجلد الثامن والعشرين الصادر فى ٣ مارس سنة ١٩٢٧م ، ٢٩ شعبان سنة ١٣٤٥ هـ ، وقال الشيخ رشيد رضا فى التقديم لها : « وجدت بين أوراق شيخنا الأستاذ الإمام الفتاوى الآتية ، فأحببت نشرها لتصدى الحكومة المصرية لتقييد إباحة التعدد ، وكثرة الكلام فيه » ص٢٩ ـ ٣٥ (انظر الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ، ج٢ ص٩٠ ـ ٩٥) .

عدد النساء على عدد الرجال توسعاً في التمتع ، وكانت البلاد العربية كما تجرى فيها هذه العادة لا إلى حد محدود ، فكان الرجل يتزوج من النساء ما تسمح له أو تحمله عليه قوة الرجولية وسعة الثروة للإتفاق عليهن وعلى ما يأتي له من الولد ..

وقد جاء الإسلام وبعض العرب تحته عشر نسوة ، وأسلم غيلان - ﷺ - وعنده عشر نسوة ، فأمر النبي ﷺ بإمساك أربع منهن ومفارقة الباقيات ، وأسلم قيس بن الحارث الأسدى وتحته ثمان نسوة ، فأمره ﷺ ، بأن يختار منهن أربعاً وأن يخلى ما بقى .

فسبب الإكثار من الزوجات إنما هو الميل إلى التمتع بتلك اللذة المعروقة وبكثرة النساء ، وقد كان العرب قبل البعثة في شقاق وقتال دائمين ، والقتال إنما كان بين الرجال ، فكان عدد الرجال ينقص بالقتل فيبقى كثير من النساء بلا أزواج ، فمن كانت عنده قوة بدنية وسعة في المال كانت تذهب نفسه وراء التمتع بالنساء فيجد منهن ما يرضى شهوته ، ولا يزال يتنقل من زوجة إلى أخرى ما دام في بدنه قوة ، وفي ماله سعة .

وكان العرب ينكحون النساء بالاسترقاق ، ولكن لا يستكثرون من ذلك ، بل كان الرجل يأخذ السبايا فيختار منهن واحدة ثم يوزع على رجاله ما بقى واحدة واحدة ، ولم يعرف أن أحداً منهم اختار لنفسه عدة منهن أو وهب لأحد رجاله كذلك دفعة واحدة .

السؤال الثانى :

« على أى صورة كان الناس يعملون بهذه العادة فى بلاد العرب خاصة ؟؟ » .

الجواب :

كان عملهم على النحو الذى ذكرته : إما بالتزوج واحدة بعد واحدة أو بالتسرى وأخذ سرية بعد أخرى ، أو جمع سرية إلى زوجة أو زوجة إلى سرية ، ولم يكن النساء إلا متاعاً للشهوة ، لا يرعى فيهن حق ، ولا يؤخذ فيهن بعدل ، حتى جاء الإسلام فشرع لهن الحقوق وفرض فيهن العدل .

السؤال الثالث :

« كيف أصلح نبينا ﷺ هذه العادة ، وكيف كان يفهمها ؟؟ » .

الجواب :

جاء ﷺ وحال الرجال مع النساء كما ذكرنا ، لا فرق بين متزوجة وسرية فى المعاملة ، ولا حد لما يبتغى الرجل من الزوجات ، فأراد الله أن يجعل فى شرعه ﷺ رحمة بالنساء وتقريراً لحقوقهن ، وحكماً عدلاً يرتفع به شأنهن ، وليس الأمر كما يقول كتبة الأوروبيين : إن ما كان عند العرب عادة جعله الإسلام ديناً ، وإنما أخذ الإفرنج ما ذهبوا إليه من سوء استعمال المسلمين لدينهم ، وليس له مأخذ صحيح منه .

حكم تعدد الزوجات جاء فى قوله تعالى فى سورة النساء :

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ

وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾(١) .

كان الرجل من العرب يكفل اليتيمة فيعجبه جمالها ومالها ، فإن كانت تحل له تزوجها وأعطاها من المهر دون ما تستحق ، وأساء صحبتها وقتر فى الإنفاق عليها وأكل مالها ، فنهى الله المؤمنين عن ذلك ، وشدد عليهم فى الامتناع عنه ، وأمرهم أن يؤتوا اليتامى أموالهم ، وحذرهم من أن يأكلوا أموالهم إلى أموالهم ، ثم قال لهم : إن كان ضعف اليتيمات يجركم إلى ظلمهن ، وخفتم أن لا تقسطوا فيهن إذا تزوجتموهن ، وأن يطغى فيكم سلطان الزوجية فتأكلوا أموالهن وتستذلوهن ، فدونكم النساء سواهن فانكحوا ما يطيب لكم منهن من ذوات جمال ومال من واحدة إلى أربع ، ولكن ذلك على شرط أن تعدلوا بينهن فلا يُباح لأحد من المسلمين أن يزيد فى الزوجات على واحدة إلا إذا وثق بأن يراعى حق كل واحدة منهن ، ويقوم بينهن بالقسط ، ولا يفضّل إحداهن على الأخرى فى أى أمر حسن يتعلق بحقوق الزوجية التى تجب مراعاتها ، فإذا ظن أنه إذا تزوج فوق الواحدة لا يستطيع العدل وجب عليه أن يكتفى بواحدة فقط .

فتراه قد جاء فى أمر تعدد الزوجات بعبارة تدل على مجرد الإباحة على شرط العدل ، فإن ظن الجور منعت الزيادة على الواحدة ، وليس فى ذلك ترغيب فى التعدد بل فيه تبغيض له ، وقد قال فى الآية الأخرى : ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا

---

(١) النساء : ٣

كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٢٩) ﴾[١] .

فإذا كان العدل غير مستطاع ، والخوف من عدم العدل يوجب الاقتصار على الواحدة ، فما أعظم الحرج فى الزيادة عليها ؟ .

فالإسلام قد خفف الإكثار من الزوجات ، ووقف عند الأربع ، ثم إنه شدد الأمر على المكثرين إلى حد لو عقلوه لما زاد واحد منهم على الواحدة .

وأما المملوكات من النساء فقد جاء حكمهن فى قوله تعالى : ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾[٢] ، وهو إباحة الجمع بينهن وإن لم يكن من الرجل عدل فيهن ، لأن المملوكة لا حق لها ، ولمالكها أن يتركها للخدمة ولا يضاجعها البتة ، وقد اتفق المسلمون على أنه يجوز للرجل أن يأخذ من الجوارى ما يشاء بدون حصر . ولكن .. يمكن لفاهم أن يفهم من الآية غير ذلك ؛ فإن الكلام جاء مرتبطاً بإباحة التعدد إلى الأربعة فقط ، وإن الشرط فى الإباحة التحقق من العدل ، فيكون المعنى : أنه إذا خيف الجور وجب الاقتصار على الواحدة من الزوجات أو أخذ العدد المذكور مما ملكت الأيمان ، فلا يباح من النساء ما فوق الأربع على كل حال ، ويباح الأربع بدون مراعاة للعدل فى المملوكات دون الزوجات ؛ لأن المملوكات ليس لهن حقوق فى العشرة على ساداتهن ، إلا ما كان من حقوق العبد على سيده ، وحق العبد على سيده أن يطعمه ويكسوه وألا يكلفه من العمل فى الخدمة ما لا يطيق ، أما أن يمتعه بما تتمتع

---

(١) النساء : ١٢٩ .

(٢) النساء : ٣ .

به الزوجـــات فـلا[١] .

وقد سـاء استعـمال المسلمين لما جـاء في دينهم من هذه الأحكام الجليلة ، فأفـرطوا في الاستـزادة من عدد الجواري ، وأفـسدوا بذلك عـقولهم وعـقول ذراريهم بمقدار ما اتسعت لذلك ثروتهم .

أما الأسرى اللاتي يصح نكاحـهن فهن أسرى الحرب الشرعيـة التي قصد بها المدافعة عن الدين القويم أو الدعوة إليه بشروطها ، ولا يكن عند الأسر إلا غير مـسلمات . ثم يجوز بيعـهن بعد ذلك وإن كن مسلمات ، وأمـا ما مضى المسلمـون على اعتـياده من الرق ، وجـرى عليه عمـلهم في الأزمان الأخـيرة فليس من الدين في شئ ، فـما يشـترونه من بنات الجـراكسة المسلمـين اللاتي يبيـعهن آباؤهن وأقاربهن طلبـاً للرزق ، أو من السودانيات اللاتي يختطفهن الأشقياء السلبـة المعروفون « بالأسيرجية » فهـو ليس بمشروع ولا معروف في دين الإسـلام ، وإنما هو من عـادات الجـاهليـة ، لكن لا جـاهليـة العـرب بل جاهلية السودان والجركس .

وأما جواز إبطال هذه العادة ، أي : عادة تعدد الزوجات فلا ريب فيه .

أما أولاً : فلأن شرط التـعدد هو التحقق من العدل ، وهذا الشرط مـفقود

---

(١) في هامش (المنار) نجد هنا تعليـقاً لا ندري أهو للإمام أم للشيخ رشيد رضا ، ولم ينسب إلى (المنار) كما هي عـادة الشيخ رشيد ، وكمـا فعل في نفس الموضوع عندما ميـز تعليقاته بنسبتها إلى (المنار) ونص التعليق : « وهذا هو المنصوص في فقه المذاهب المشهورة ، ولكن قالوا بأن ما يجب للزوجة يستحب للسرية ، وفي كتب الحنابلة قول بأنه يجب على السيد أن يحصن مملوكه ومملوكته بالزواج بشرطه » .

حتماً ، فـإن وجد فى واحد من المليون فلا يصح أن يتخـذ قاعدة ، ومتى غلب الفساد على الـنفوس ، وصار من المرجح ألا يعدل الرجـال فى زوجاتهم جاز للحاكم أو للعالم أن يمنع التعدد مطلقاً مراعاة للأغلب .

وثانياً : قد غلب سوء معاملة الرجال لزوجاتهم عند التعدد ، وحرمانهن من حقوقهن فى النفقة والراحة ، ولهذا يجوز للحاكم وللقائم على الشرع أن يمنع التعدد دفعاً للفساد الغالب .

وثالثاً : قـد ظهـر أن منشـأ الفسـاد والعـداوة بين الأولاد هو اختـلاف أمهـاتهـم ؛ فإن كل واحـد منهم يتربى على بغض الآخر وكراهيـته ، فلا يبلغ الأولاد أشـدهم إلا وقد صـار كل منهم من أشـد الأعداء للآخـر ، ويسـتمر النزاع بينهم إلـى أن يخربـوا بيوتهـم بأيديهم وأيدى الظالمين ؛ ولهـذا يجـوز للحـاكم أو لصاحب الـدين أن يمنع تعدد الزوجـات والجـوارى معـاً صيـانة للبيوت عن الفساد .

نعم .. ليس من العـدل أن يُمنع رجل لم تأت زوجته مـنه بأولاد أن يتزوج أخرى ليأتى منها بذرية ، فإن الغـرض من الزواج التناسل ، فإذا كانت الزوجة عاقراً فليس من الحق أن يمنع زوجها من أن يضم إليها أخرى .

وبالجملة .. فيجوز الحجر على الأزواج عـموماً أن يتزوجوا غير واحدة إلا لضرورة تثبت لدى القاضى ، ولا مـانع من ذلك فى الدين البـتة ، وإنما الذى يمنع ذلك هو العادة فقط .

تفسير آية التعدد

يقول الله سبحانه وتعالى فى سورة النساء :

﴿ وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾ ﴾

(النساء : ٢ ، ٣)

وفسر الأستاذ الإمام هذه الآيات فقال[١] :

قلنا : إن الكلام فى أوائل هذه السورة فى الأهل والأقارب والأزواج وهو يتسلسل فى ذلك إلى قوله تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾[٢] الآية ؛ ولذلك افتتحها بالتذكير بالقرابة والأخوة العامة وهى كون الأمة من نفس واحدة ، ثم طفق يبين حقوق الضعفاء من الناس كاليتامى والنساء والسفهاء ويأمر بالتزامها .

---

(١) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده جـ٥ ص١٦٧ ـ ١٧١ .

(٢) النساء : ٣٦ .

فقال : ﴿ وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ ﴾ :

واليتيم لغة : من مات أبوه مطلقاً ، وفى عرف الفقهاء : من مات أبوه وهو صغير ، فمتى بلغ زال يتمه ، إلا إذا بلغ سفيهاً فإنه يبقى فى حكم اليتيم ولا يزول عنه الحجر . ومعنى إيتاء اليتامى أموالهم : هو جعلها لهم خاصة وعدم أكل شئ منها بالباطل ، أى : أنفقوا عليهم من أموالهم حتى يزول يتمهم بالرشد كما يأتى فى آية :﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ ﴾ ، فعند ذلك يدفع إليهم ما بقى لهم بعد النفقة عليهم فى زمن اليتم والقصور . فهذه الآية فى إعطاء اليتامى أموالهم فى حالتى اليتم والرشد ، كل حالة بحسبها ، وتلك خاصة بحال الرشد . وليس فى هذه تجوز ـ كما قالوا ـ فإن نفقة ولى اليتيم عليه من ماله يصدق عليه أنه إيتاء مال اليتيم لليتيم ، والمقصود من هذه الآية ظاهر ، وهو المحافظة على مال اليتيم وجعله له خاصة وعدم هضم شئ منه ؛ لأن اليتيم ضعيف لا يقدر على حفظه والدفاع عنه ؛ ولذلك قال : ﴿ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ﴾ :

المراد بالخبيث : الحرام ، وبالطيب : الحلال ، أى : لا تتمتعوا بمال اليتيم فى المواضع والأحوال التى من شأنكم أن تتمتعوا فيها بأموالكم . يعنى أن الإنسان إنما يُباح له التمتع بمال نفسه فى الطرق المشروعة ، فإذا عرض له استمتاع فعليه أن يجعله من مال نفسه لا من مال اليتيم الذى هو قيِّم ووصى عليه ، فإذا استمتع بمال اليتيم فقد جعل مال اليتيم فى هذا الموضع بدلاً من ماله ، وبهذا يظهر معنى التبدل والاستبدال .

وقوله : ﴿ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ ﴾ :

أى : لا تأكلوها مضمومة إلى أموالكم ، وهذا صريح فيما إذا كان للولى مال يضم مال اليتيم إليه ، ويمكن أن يقال إن أكله مفرداً غير مضموم إلى مال الولى أولى بالتحريم ، وهو داخل فى عموم قوله : ﴿ وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ ﴾، وقيل : يفهم من هذا القيد جواز أكل الوصى الفقير الذى لا مال له شيئاً من مال اليتيم . وسيأتى التصريح بذلك فى الآية السادسة .

﴿ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيراً ﴾ :

أى : إن أكل مال اليتيم ، أو تبدل الخبيث بالطيب منه ، أو ما ذكر من مجموع الأمرين ـ وكانت تفعله الجاهلية ـ كان فى حكم الله حوباً كبيراً ،أى : إثماً عظيماً .

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلاَّ تَعُولُوا ﴾

جاء ذكر تعدد الزوجات فى سياق الكلام على اليتامى والنهى عن أكل أموالهم ولو بواسطة الزوجية ، فقال : إن أحسستم من أنفسكم الخوف من أكل مال الزوجة اليتيمة فعليكم ألا تتزوجوا بها ، فإن الله تعالى جعل لكم مندوحة عن اليتامى بما أباحه لكم من التزوج بغيرهن إلى أربع نسوة ، ولكن إن خفتم أن لا تعدلوا بين الزوجات أو الزوجتين فعليكم أن تلتزموا واحدة

فقط . والخوف من عدم العدل يصدق بالظن والشك فيه ، بل يصدق بتوهمه أيضاً ، ولكن الشرع قد يغتفر الوهم لأنه قلما يخلو منه علم بمثل هذه الأمور فالذى يُباح له أن يتزوج ثانية أو أكثر هو الذى يثق من نفسه بالعدل بحيث لا يتردد فيه ، أو يظن ذلك ويكون التردد فيه ضعيفاً .

ولما قال : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾ علله بقوله : ﴿ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلاَّ تَعُولُوا ﴾ أى أقرب من عدم الجور والظلم فجعل البعد من الجور سبباً فى التشريع، وهذا مؤكد لاشتراط العدل ووجوب تحريه ، ومنبه إلى أن العدل عزيز . وقد قال تعالى فى آية أخرى من هذه السورة : ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾[1] وقد يحمل هذا على العدل فى ميل القلب ، ولولا ذلك لكان مجموع الآيتين منتجاً عدم جواز التعدد بوجه ما ، ولما كان يظهر وجه قوله بعد ما تقدم من الآية : ﴿ فَلاَ تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ﴾ والله يغفر للعبد ما لا يدخل تحت طاقته من ميل قلبه ، وقد كان النبى ﷺ يميل فى آخر عهده إلى عائشة أكثر من سائر نسائه ولكنه لا يخصها بشئ دونهن ، أى : بغير رضاهن وإذنهن ، وكان يقول : **«اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تؤاخذنى فيما لا أملك »** . أى : من ميل القلب .

فمن تأمل الآيتين علم أن إباحة تعدد الزوجات فى الإسلام أمر مضيق فيه أشد التضييق ، كأنه ضرورة من الضرورات التى تُباح لمحتاجها بشرط الثقة

---

(١) النساء : ١٢٩ .

بإقامة العدل والأمن من الجور . وإذا تأمل المتأمل - مع هذا التضييق - ما يترتب على التعدد فى هذا الزمان من المفاسد جزم بأنه لا يمكن لأحد أن يربى أمة فشا فيها تعدد الزوجات ، فإن البيت الذى فيه زوجتان لزوج واحد لا تستقيم له حال ولا يقوم فيه نظام ، بل يتعاون الرجل مع زوجاته على إفساد البيت ، كأن كل واحد منهم عدو للآخر ، ثم يجئ الأولاد بعضهم لبعض عدو ، فمفسدة تعدد الزوجات تنتقل من الأفراد إلى البيوت ومن البيوت إلى الأمة .

كان للتعدد فى صدر الإسلام فوائد ، أهمها : صلة النسب والصهر الذى تقوى به العصبية ، ولم يكن له من الضرر مثل ما له الآن ، لأن الدين كان متمكناً فى نفوس النساء والرجال ، وكان أذى الضرة لا يتجاوز ضرتها . أما اليوم فإن الضرر ينتقل من كل ضرة إلى ولدها إلى والده إلى سائر أقاربه ، فهى تغرى بينهم العداوة والبغضاء ، تغرى ولدها بعداوة إخوته ، وتغرى زوجها بهضم حقوق ولده من غيرها ، وهو - بحماقته - يطيع أحب نسائه إليه، فيدب الفساد فى العائلة كلها ، ولو شئت تفصيل الرزايا والمصائب المتولدة من تعدد الزوجات لأتيت بما تقشعر منه جلود المؤمنين ، فمنها السرقة والزنا والكذب والخيانة والجبن والتزوير ، بل منها القتل ، حتى قتل الولد والده والوالد ولده والزوجة زوجها والزوج زوجته ، كل ذلك واقع ثابت فى المحاكم . وناهيك بتربية المرأة التى لا تعرف قيمة الزوج ولا قيمة الولد ، وهى جاهلة بنفسها وجاهلة بدينها لا تعرف منه إلا خرافات وضلالات تلقفتها من أمثالها يتبرأ منها كل كتاب منزل وكل نبى مرسل ، فلو تربى النساء تربية دينية

صحيحة يكون بها الدين هو صاحب السلطان الأعلى على قلوبهن بحيث يكون هو الحاكم على الغيرة لما كان هنالك ضرر على الأمة من تعدد الزوجات ، وإنما كان يكون ضرره قاصراً عليهن في الغالب ، أما والأمر على ما نرى ونسمع فلا سبيل إلى تربية الأمة مع فشو تعدد الزوجات فيها ؛ فيجب على العلماء النظر في هذه المسألة خصوصاً الحنفية منهم الذين بيدهم الأمر وعلى مذهبهم الحكم ، فهم لا ينكرون أن الدين أنزل لمصلحة الناس وخيرهم، وأن من أصوله منع الضرر والضرار ، فإذا ترتب على شئ مفسدة في زمن لم تكن تلحقه فيما قبله فلا شك في وجوب تغير الحكم وتطبيقه على الحال الحاضرة ، يعني على قاعدة : درء المفاسد مقدم على جلب المصالح. وبهذا يعلم أن تعدد الزوجات محرم قطعاً عند الخوف من عدم العدل .

تقدم أن إباحة تعدد الزوجات مضيقة ؛ قد اشترط فيها ما يصعب تحققه ، فكأنه نهى عن كثرة الأزواج . وتقدم أنه يحرم على من خاف عدم العدل أن يتزوج أكثر من واحدة ، ولا يفهم منه ـ كما فهم بعض المجاورين ـ أنه لو عقد في هذه الحالة يكون العقد باطلاً أو فاسداً ؛ فإن الحرمة عارضة لا تقتضي بطلان العقد، فقد يخاف الظلم ولا يظلم ، وقد يظلم ثم يتوب فيعدل ؛ فيعيش عيشة حلالاً .

أما قوله تعالى : ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ : فهو معطوف على قوله : (فواحدة) أي : فالزموا زوجاً واحدة وأمسكوا زوجاً واحدة مع العدل ـ وهذا فيمن كان متزوجاً كثيرات ـ أو الزموا ما ملكت أيمانكم

واكتفوا بالتسرى بهن بغير شرط ﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن لَّا تَعُولُوا ﴾ أى : أقرب إلى عدم العول ـ وهو الجور ـ فإن العدل بين الإماء فى الفراش غير واجب؛ إذ لا حق لهن فيه ، وإنما لهن الحق فى الكفاية بالمعروف ، وهذا لا يفيد حل ما جرى عليه المسلمون منذ قرون كثيرة من الإسراف فى التمتع بالجوارى المملوكات بحق أو بغير حق مهما ترتب على ذلك من المفاسد كما شوهد ـ ولا يزال يشاهد ـ فى بعض البلاد إلى الآن ..

﴿ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ﴾ :

الصدقات : جمع صدقة ـ بضم الدال ـ وفيه لغات ، منها : الصداق ، وهو ما يعطى للمرأة قبل الدخول عن طيب نفس ، وينبغى أن يلاحظ فى هذا العطاء معنى أعلى من المعنى الذى لاحظه الذين يسمون أنفسهم الفقهاء من أن الصداق والمهر بمعنى العوض عن البضع والثمن له . كلا إن الصلة بين الزوجين أعلى وأشرف من الصلة بين الرجل وفرسه أو جاريته ؛ ولذلك قال: (نحلة) ، فالذى ينبغى أن يُلاحظ هو أن هذا العطاء آية من آيات المحبة وصلة القربى وتوثيق عرى المودة والرحمة ، وأنه واجب حتم لا تخيير فيه كما يتخير المشترى والمستأجر ، ونرى عرف الناس جارياً على عدم الاكتفاء بهذا العطاء بل يشفعه الزوج بالهدايا والتحف .

﴿ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَّرِيئاً ﴾ :

لا يجوز للرجل أن يأكل شيئاً من مال امرأته إلا إذا علم أن نفسها طيبة به ، فإذا طلب منها شيئاً فحملها الخجل أو الخوف على إعطائه ما طلب فلا يحل له ، وعلامات الرضا وطيب النفس لا تخفى على أحد ، وإن كان

اللابسون لباس الصالحين المتحلين بعقود السبح الذين يحركون شفاههم ويلوكون ألسنتهم بما يسمونه ذكراً يستحلون أكل أموال نسائهم إذا أعطينها أو أجزن أخذها بالترهيب أو الخداع أو الخجل ويقولون : إنهن أعطيننا ولنا الظاهر والله يتولى السرائر ! .. وقد قال تعالى فى آية آتية : ﴿ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَاراً فَلاَ تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً ﴾ فإذا شدد هذا التشديد فى طور المفارقة فكيف يكون الحكم فى طور الاجتماع والمعاشرة ؟؟ ..

★ ★ ★

حكم الشريعة فى تعدد الزوجات(*)

قد أباحت الشريعة المحمدية للرجل الاقتران بأربع من النسوة إن علم من نفسه القدرة على العدل بينهن ، وإلا فلا يجوز الاقتران بغير واحدة ، قال تعالى : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾(1) فإن الرجل إذا لم يستطع إعطاء كل منهن حقها اختل نظام المنزل ، وساءت معيشة العائلة ، إذ العماد القويم لتدبير المنزل هو بقاء الاتحاد والتآلف بين أفراد العائلة ، والرجل إذا خص واحدة منهن دون الباقيات ، ولو بشئ زهيد ، كأن يستقضيها حاجة فى يوم الأخرى ، امتعضت تلك الأخرى ، وسئمت الرجل لتعديه على حقوقها بتزلفه إلى من لا حق لها ، وتبدل الاتحاد بالنفرة ، والمحبة بالبغض ، وقد كان النبى ﷺ ، وجماعة الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ والخلفاء الراشدون ، والعلماء والصالحون ، من كل قرن إلى هذا العهد يجمعون بين النسوة ، مع المحافظة على حدود الله فى العدل بينهن ، فكان ﷺ وأصحابه والصالحون من أمته لا يأتون حجرة إحدى الزوجات فى نوبة الأخرى إلا بإذنها .

من ذلك أن النبى ﷺ كان يطاف به ـ وهو فى حالة المرض ـ على بيوت زوجاته محمولاً على الأكتاف ؛ حفظاً للعدل ، ولم يرض الإقامة فى بيت

(*) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده . ج٢ ص٧٨ ـ ٨٣ .

(١) النساء : ٣ .

إحداهن خاصة ، فلما كان عند إحدى نسائه سأل : فى أى بيت أكون غداً ؟ فعلم نساؤه أنه يسأل عن نوبة عائشة ، فأذنَّ له فى المقام عندها مدة المرض ، فقال : « **هل رضيتن** » ؟ فقلن : نعم ، فلم يقم فى بيت عائشة حتى علم رضاهن ، وهذا الواجب الذى حافظ عليه النبى ﷺ هو الذى ينطبق على نصائحه ووصاياه ، فقد روى فى الصحيح أن آخر ما أوصى به ﷺ ثلاث كان يتكلم بهن حتى تلجلج لسانه وخفى كلامه : « **الصلاة الصلاة ، وما ملكت أيمانكم ، لا تكلفوهم ما لا يطيقون ، الله الله فى النساء ، فإنهن عوان فى أيديكم ـ أى أسراء ـ أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله** » وقال : « **من كان له امرأتان فمال إلى إحداهما دون الأخرى ـ وفى رواية: ولم يعدل بينهما ـ جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل** » وكان ﷺ يعتذر عن ميله القلبى بقوله : « **اللهم هذا ـ (أى العدل فى الهبات والعطاء) ـ جهدى فيما أملك ، ولا طاقة لى فيما تملك ولا أملك** » ـ (يعنى الميل القلبى) ـ **وكان يقرع[1] بينهن إذا أراد سفراً .**

وقد قال الفقهاء : يجب على الزوج المساواة فى القسم فى البيتوتة بإجماع الأئمة ، وفيها وفى العطاء ـ أعنى النفقة ـ عند غالبهم ، حتى قالوا : يجب على ولى المجنون أن يطوفه على نسائه ، وقالوا : لا يجوز للزوج الدخول عند إحدى زوجاته فى نوبة الأخرى إلا لضرورة مبيحة ، غايته يجوز له أن يسلِّم عليها من خارج الباب ، والسؤال عن حالها بدون دخول . وصرَّحت كتب

---

(١) أى يجرى القرعة لتحديد من تصحبه منهن فى سفره .

الفقه بأن الزوج إذا أراد الدخول عند صاحبة النوبة ، فأغلقت الباب دونه ، وجب عليه أن يبيت بحجرتها ، ولا يذهب إلى ضرتها إلا لمانع برد ونحوه .

وقال علماء الحنفية : إن ظاهر آية ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾ ، أن العدل فرض في البيتوتة ، وفي الملبوس ، والمأكول ، والصحبة ، لا في المجامعة ، لا فرق في ذلك بين فحل وعنين ومجبوب[1] ومريض وصحيح . وقالوا : إن العدل من حقوق الزوجية ، فهو واجب على الزوج كسائر الحقوق الواجبة شرعاً ؛ إذ لا تفاوت بينهما ، وقالوا : إذا لم يعدل ، ورفع إلى القاضي ، وجب نهيه وزجره ، فإن عاد عزر[2] بالضرب لا بالحبس ، وما ذلك إلا محافظة على القصد الأصلي من الزواج ، وهو التعاون في المعيشة وحسن السلوك فيها .

أفبعد الوعيد الشرعي ، وذاك الإلزام الدقيق الحتمي الذي لا يحتمل تأويلاً ولا تحويلاً ، يجوز الجمع بين الزوجات عند توهم عدم القدرة على العدل بين النسوة ، فضلاً عن تحققه ؟؟ فكيف يسوغ لنا الجمع بين نسوة لا يحملنا على جمعهن إلا قضاء شهوة فانية ، واستحصال لذة وقتية ، غير مبالين بما ينشأ عن ذلك من المفاسد ، ومخالفة الشرع الشريف !؟ ..

فإنا نرى أنه إن بدت لإحداهن فرصة للوشاية عند الزوج في حق الأخرى صرفت جهدها ما استطاعت في تنميقها وإتقانها ، وتحلف بالله إنها

---

(١) الفحل : من لا عيب في قدراته الجنسية ، والعنين : هو صغير عضو التناسل ، والمجبوب : هو مقطوع عضو التناسل .

(٢) أدب .

الصادقة فيما افترت ، (وما هى إلا من الكاذبات) . فيعتقد الرجل أنها أخلصت له النصح لفرط ميله إليها ، ويوسع الأخريات ضرباً مبرحاً وسباً فظيعاً ، ويسومهن طرداً ونهراً من غير أن يتبين فيما ألقى إليه ، إذ لا هداية عنده ترشده إلى تمييز صحيح القول من فاسده ، ولا نور بصيرة يوقفه على الحقيقة ، فتضطرم نيران الغيظ فى أفئدة هاتيك النسوة ، وتسعى كل واحدة منهن فى الانتقام من الزوج والمرأة الواشية ، ويكثر العراك والمشاجرة بينهن بياض النهار وسواد الليل ، وفضلاً عن اشتغالهن بالشقاق عما يجب عليهن من أعمال المنزل ، يكثرن من خيانة الرجل فى ماله وأمتعته لعدم الثقة بالمقام عنده ، فإنهن دائماً يتوقعن منه الطلاق إما من خبث أخلاقهن أو من رداءة أفكار الزوج ، وأيّا ما كان فكلاهما لا يهدأ له بال ولا يروق له عيش .

ومن شدة تمكن الغيرة والحقد فى أفئدتهن تزرع كل واحدة فى ضمير ولدها ما يجعله من ألد الأعداء لإخوته أولاد النسوة الأخريات ؛ فإنها دائماً تمقتهم وتذكرهم بالسوء عنده وهو يسمع ، وتبين له امتيازهم عنه عند والدهم ، وتعدد له وجوه الامتياز ، فكل ذلك وما شابهه إن أُلقى إلى الولد حال الطفولية يفعل فى نفسه فعلاً لا يقوى على إزالته بعد تعلقه ، فيبقى نفوراً من أخيه عدواً له ، لا نصيراً وظهيراً له على اجتناء الفوائد ودفع المكروه كما هو شأن الأخ .

وإن تطاول واحد من ولد تلك على آخر من ولد هذه ، وإن لم يعقل ما لفظ إن كان خيراً أو شرا لكونه صغيراً ، انتصب سوق العراك بين والدتيهما ، وأوسعت كل واحدة الأخرى بما فى وسعها من ألفاظ الفحش ومستهجنات

السب ـ وإن كن من المخدرات في بيوت المعتبرين ـ كما هو مشاهد في كثير من الجهات ، خصوصاً الريفية ، وإذا دخل الزوج عليهن في هذه الحالة تعسَّر عليه إطفاء الثورة من بينهن بحسن القول ولين الجانب ، إذ لا يسمعن له أمراً، ولا يرهبن منه وعيداً ؛ لكثرة ما وقع بينه وبينهن من المنازعات والمشاجرات، لمثل هذه الأسباب أو غيرها ، التى أفضت إلى سقوط اعتباره وانتهاك واجباته عندهن ، أو لكونه ضعيف الرأى ، أحمق الطبع ، فتقوده تلك الأسباب إلى فض هذه المشاجرة بطلاقهن جميعاً ، أو طلاق من هي عنده أقل منزلة في الحب ، ولو كانت أم أكثر أولاده ، فتخرج من المنزل سائلة الدمع ، حزينة الخاطر ، حاملة من الأطفال عديداً ، فتأوى بهم إلى منزل أبيها ـ إن كان ـ ثم لا يمضى عليها بضعة أشهر عنده إلا سئمها ، فلا تجد بداً من رد الأولاد إلى أبيهم ، وإن علمت أن زوجته الحالية تعاملهم بأسوأ مما عوملوا به من عشيرة أبيها ، ولا تسل عن أم الأولاد إذا طلقت وليس لها من تأوى إليه ، فإن شرح ما تعانيه من ألم الفاقة وذل النفس ليس يحزن القلب بأقل من الحزن عند العلم بما تسام به صبيتُها من الطرد والتقريع ، يئنون من الجوع ، ويبكون من ألم المعاملة .

ولا يقال إن ذلك غير واقع ، فإن الشريعة الغرَّاء كلفت الزوج بالنفقة على مطلقته وأولاده منها حتى تحسن تربيتهم ، وعلى من يقوم مقامها في الحضانة إن خرجت من عدَّتها وتزوجت ، فإن الزوج وإن كلفته الشريعة بذلك لكن لا يرضخ لأحكامها في مثل هذا الأمر الذى يكلفه نفقات كبيرة إلا مكرهاً مجبوراً ، والمرأة لا تستطيع أن تطالبه بحقها عند الحاكم الشرعى ، إما لبعد

مركزه فلا تقدر على الذهاب إليه ، وتترك بنيها لا يملكون شيئاً مدة أسبوع أو أسبوعين حتى يستحضر القاضى الزوج ، وربما آبت إليهم حاملة صكاً بالتزامه بالدفع لها كل شهر ما أوجبه القاضى عليه من النفقة ، من غير أن تقبض منه ما يسد الرمق أو يذهب بالعوز ، ويرجع الزوج مصراً على عدم الوفاء بما وعد ، لكونه متحققاً من أن المرأة لا تقدر أن تخاطر بنفسها إلى العودة للشكاية ، لوهن قواها واشتغالها بما يذهب الحاجة الوقتية ، أو حياء من شكاية الزوج ، فإن كثيراً من أهل الأرياف يعدُّون مطالبة المرأة بنفقتها عيباً فظيعاً ، فهى تفضل البقاء على تحمل الأتعاب الشاقة ، طلباً لما تقيم به بنيتها هى وبنوها على الشكاية التى توجب لها العار ، وربما لم تأت بالثمرة المقصودة . وغير خفى أن ارتكاب المرأة الأيم[1] لهذه الأعمال الشاقة ، ومعاناة البلايا المتنوعة التى أقلها ابتذال ماء الوجه ، تؤثر فى أخلاقها فساداً ، وفى طباعها قبحا ، مما يذهب بكمالها ويؤدى إلى تحقيرها عند الراغبين فى الزواج ، ولربما أدت بها هذه الأمور إلى أن تبقى أيماً مدة شبابها ، تتجرع غصص الفاقة والذل ، وإن خطبها رجل بعد زمن طويل من يوم الطلاق فلا يكون فى الغالب إلا أقل منزلة وأصغر قدراً من بعلها السابق ، أو كهلاً قلَّت رغبة النساء فيه ، ويمكث زمناً طويلاً يقدم رجلاً ويؤخر أخرى ، خشية على نفسه من عائلة زوجها السالف ، فإنها تبغض أى شخص يريد زواج امرأته ، وتضمر له السوء إن فعل ذلك ، كأن مطلقها يريد أن تبقى أيماً إلى الممات ، رغبة فى نكالها وإساءتها إن طلقها كارهاً لها ، أما إذا كان طلاقها ناشئاً عن

---

(١) الأيم : التى فقدت زوجها (وتضبط بفتح الهمزة وكسر الياء مشددة) .

حماقة الرجل لإكثاره من الحلف به عند أدنى الأسباب وأضعف المقتضيات ـ كما هو كثير الوقوع الآن ـ اشتد حنقه وغيرته عليها ، وتمنى لو استطاع سبيلاً إلى قتلها أو قتل من يريد الاقتران بها .

وكأني بمن يقولون : إن هذه المعاملة وتلك المعاشرة لا تصدر إلا من سفلة الناس وأدنيائهم ، وأما ذوو المقامات وأهل اليسار فلا نشاهد منهم شيئاً من ذلك ، فإنهم ينفقون مالاً لُبداً[1] على مطلقاتهم وأولادهم منها ، وعلى نسوتهم العديدات في بيوتهم ، فلا ضير عليهم في الإكثار من الزواج إلى الحد الجائز ، والطلاق إذا أرادوا ، بل هو الأجمل والأليق بهم اتباعاً لما ورد عنه ﷺ : «**تناكحوا تناسلوا فإني مباه بكم الأمم يوم القيامة**» ، وأما ما يقع من سفلة الناس فلا يصح أن يجعل قاعدة للنهي عما كان عليه عمل النبي والسلف الصالح من الأمة خصوصاً وآية ﴿ **فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ** ﴾[2] لم تنسخ بالإجماع ، فإذاً يلزم العمل بمدلولها ما دام الكتاب .

نقول في الجواب عن هذا : كيف يصح هذا المقال وقد رأينا الكثير من الأغنياء وذوي اليسار يطردون نساءهم مع أولادهن ، فتربى أولادهم عند أقوام غير عشيرتهم ، لا يعتنون بشأنهم ، ولا يلتفتون إليهم ، وكثيراً ما رأينا

---

(١) أي : كثيراً (وتضبط بضم اللام وفتح الباء) .
(٢) النساء : ٣ .

الآباء يطردون أبناءهم وهم كبار ؛ مرضاة لنسائهم الجديدات ، ويسيئون إلى النساء بما لا يستطاع ، حتى أنه ربما لا يحمل الرجل منهم على تزوج ثانية إلا إرادة الإضرار بالأولى ، وهذا شائع كثير ، وعلى فرض تسليم أن ذوى اليسار قائمون بما يلزم من النفقات ، لا يمكننا إلا أن نقول ـ كما هو الواقع ـ : إن إنفاقهم على النسوة ، وتوفية حقوق الزوجة من القسم فى المبيت ليس على نسبة عادلة ، كما هو الواجب شرعاً على الرجل لزوجاته ، فهذه النفقة تستوى مع عدمها من حيث عدم القيام بحقوق الزوجات الواجبة الرعاية كما أمرنا به الشرع الشريف ، فإذا لا تمايز بينهم وبين الفقراء فى أن كلاً قد ارتكب ما حرمته الشرائع ، ونهت عنه نهياً شديداً ، خصوصاً وأن مضرات اجتماع الزوجات عند الأغنياء أكثر منها عند الفقراء ، كما هو الغالب ، فإن المرأة قد تبقى فى بيت الغنى سنة أو سنتين بل ثلاثاً بل خمساً بل عشراً لا يقربها الزوج خشية أن تغضب عليه من يميل إليها ميلاً شديداً ، وهى مع ذلك لا تستطيع أن تطلب منه أن يطلقها لخوفها على نفسها من بأسه ، فتضطر إلى فعل ما لا يليق . وبقية المفاسد التى ذكرناها من تربية الأبناء على عداوة إخوتهم بل وأبيهم أيضاً موجودة عند الأغنياء أكثر منها عند الفقراء ، ولا تصح المكابرة فى إنكار هذا الأمر بعد مشاهدة آثاره فى غالب الجهات والنواحى ، وتطاير شره فى أكثر البقاع من بلادنا وغيرها من الأقطار المشرقية .

فهذه معاملة غالب الناس عندنا ، من أغنياء وفقراء ، فى حالة التزوج بالمتعددات ، كأنهم لم يفهموا حكمة الله فى مشروعيته ، بل اتخذوه طريقاً

لصرف الشهوة واستحصال اللذة لا غير ، وغفلوا عن المقصد الحقيقى منه ، وهذا لا تجيزه الشريعة ، ولا يقبله العقل ، فاللازم عليهم حينئذ إما الاقتصار على واحدة إذا لم يقدروا على العدل ، كما هو مشاهد ، عملاً بالواجب عليهم بنص قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَن لاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ ، وأما آية : ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾ فهى مقيدة بآية ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ ﴾ وإما أن يتبصروا قبل طلب التعدد فى الزوجات فيما يجب عليهم شرعاً من العدل، وحفظ الألفة بين الأولاد ، وحفظ النساء من الغوائل التى تؤدى بهن إلى الأعمال الغير اللائقة ، ولا يحملونهن على الإضرار بهم وبأولادهم ، ولا يطلقونهن إلا لداع ومقتض شرعى ، شأن الرجال الذين يخافون الله ، ويوقرون شريعة العدل ، ويحافظون على حرمات النساء وحقوقهن ، ويعاشرونهن بالمعروف ، ويفارقونهن عند الحاجة . فهؤلاء الأفاضل الأتقياء لا لوم عليهم فى الجمع بين النسوة إلى الحد المباح شرعاً ، وهم وإن كانوا عدداً قليلاً فى كل بلد وإقليم ، لكن أعمالهم واضحة الظهور ، تستوجب لهم الثناء العميم والشكر الجزيل ، وتقربهم من الله العادل العزيز .

***

خاتمة

(فى ختام تفسير آية البقرة ٢٣٧ ـ التى انتهى بها عرض السورة لأحكام الحياة الزوجية ـ يقول الأستاذ الإمام)[1] :

من تدبر هذه الآيات وفهم هذه الأحكام يتجلى له نسبة مسلمى هذا العصر إلى القرآن ، ومبلغ حظهم من الإسلام !

إن الروابط الطبيعية فى النكاح والصهر وسائر أنواع القرابة صارت أَرَثَّ وأضعف .. فمن نظر فى أحوال مسلمى بلادنا ، وتبين ما يجرى بين الأزواج من المخاصمات والمنازعات والمضارات ، وما يكيد بعضهم لبعض ، يخيل إليه أنهم ليسوا من أهل القرآن ! ، بل يجدهم كأنهم لا شريعة لهم ولا دين ، بل آلهتهم أهواؤهم ، وشريعتهم شهواتهم ، وإن حال المماكسة بين التجار فى السلع هى أحفظ وأضبط من حال الزواج ، وأقوى فى الصلة من روابط الأزواج ..

إن رجلاً هجر زوجته ـ وهى ابنة عمه ، وله منها بنت ـ بغير ذنب غير الطمع فى المال ، فكان كلما كلَّموه فى شأنها قال : لتشتر عصمتها منى ! . وهناك ما هو أدهى من ذلك وأمرُّ ، كالذين يتركون نساءهم بغير نفقات حتى

(١) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده .ج٤ ص٦٧٧ ، ٦٧٨ .

قد يضطرونهن إلى بيع أعراضهن ، وكالمطلقات المعتدات بالقروء[1] يزعمن أن حيضهن حبس ، فتمر السنون ولا تنقضي عدتهن ـ بزعمهن ـ وما الغرض إلا إلزام المطلق النفقة طول هذه المدة ؛ انتقاماً منه ! .

وكالذين يذرون أزواجهن كالمعلقات ، لا يمسكونهن بمعروف ولا يسرحونهن بإحسان ، أو يفتدين منهم بالمال ! .

فأين الله وأين كتاب الله وشرعه من هؤلاء ؟ وأين هم منه ؟! ..

إنهم ليسوا من كتاب الله في شئ ، ولكن المسرفين أهواءهم يتبعون ! .

***

---

(١) القُرء ـ بضم القاف وسكون الراء ـ : مدة الحيض ، أو المدة بين الحيضتين .

ملف عن حياة

الإمام محمد عبده

ومكانته فى حركة التجديد

سيرة حياته

ليست هذه ترجمة لحياة الأستاذ الإمام ، فلقد وضعت لحياته العديد من الترجمات ، على أسس متعددة ومتباينة من المناهج الخاصة بالترجمة لحياة العظماء والمفكرين والحكماء .

وبالرغم من أن لنا العديد من الملاحظات على بعض ما كتب عن حياته من تاريخ ، إلا أن المقام الذى نحن فيه ليس مقام الترجمة المستفيضة لحياته الخصبة ، والغنية بالعبر والمثل والدروس ، وإنما الأمر الذى نحن بصدده هو تقديم سيرة موجزة لحياته . ففى سطور شديدة الإيجاز .. سنكثف أحداث حياته الفكرية والعملية ، مبرزين أهم قسماتها ، واضعين اليد على عوامل تكوين هذه القسمات ، مشيرين إلى درجات التطور التى حدثت له فى المراحل التى مرّت بها حياته . وفى كل ذلك فنحن نستفيد من كل ما قرأناه مما كتب عنه ، وبالدرجة الأولى نحتكم إلى أعماله الفكرية هو ، بعد الجمع لها ـ وهو ما أنجزناه للمرة الأولى ـ وبعد التحقيق العلمى لنصوصها كى تتميز عن نصوص غيره ـ وهو ما قمنا به أيضاً للمرة الأولى ـ وهما الأمران اللذان أتاحا لنا تصحيح العديد من تواريخ الأحداث الفكرية والعملية التى شهدتها حياته ، والتى أخطأ فى كثير منها من كتبوا له وعنه بعض الترجمات . ولقد أعاننا على هذا التصحيح أيضاً ما أتاحه لنا جمع أعماله وتحقيقها ، ومن ثم

اكتمال معالم فكره ، فى حركته وتطوره ، ما أتاحه لنا ذلك من تقديم دراسة عن فكره السياسى والاجتماعى ، نعتقد أنها قد حسمت ذلك الجدل والتخبط الذى لازم الحديث عن هذا الجانب من آثاره ما يقرب من قرن من الزمان(١) .

فمعالم حياته الفكرية والعملية التى نقدمها هنا ، هى ثمرة لجهد من سبقنا فى الترجمة له ، ولتلك الإضافات الأساسية الجديدة التى يقدمها جمع أعماله وتحقيقها ، وما أثمره هذا الجمع والتحقيق من تقديم الصورة الدقيقة والمتكاملة عن أحداث حياة هذا المفكر الكبير .

أما صفحات هذه السيرة فإنها تتسلسل مع تطور الحياة التى ترصد معالمها وقسماتها لتسجل مراحل هذا التطور ، ولتقدم لنا عن هذه الحياة صفحات ست :

١ ـ **تكوين صباه** : والفترة التى كان يصده فيها عن طلب العلم ذلك المنهج الجامد الذى كان عليه التعليم بالأزهر فى ذلك الحين .

٢ ـ **إشراقة التصوف التى اجتذبه بواسطتها خال أبيه الشيخ درويش خضر فمنحه بها الثقة فى إمكانية تحصيل العلم وضرورة التعليم وجدواه .**

٣ ـ **قيادة جمال الدين الأفغانى له من درب التصوف والتنسك إلى ساحة الفلسفة والحكمة والعمل السياسى فى سبيل الوطن والشرق والإسلام .**

---

(١) لمن يشاء الاطلاع على كل ذلك بالتفصيل فلينظر « الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده » وهى التى جمعناها وحققناها وقدمنا لها دراسة مستفيضة عن فكره السياسى والاجتماعى نشرتها ـ فى ستة أجزاء ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت ـ ١٩٧٢ ـ ١٩٧٤م .

٤ ـ المرحلة الأولى : التى حمل فيها مسئولية دعوة الإصلاح بمصر ، بعد نفى جمال الدين ، ولكن بمنهجه الخاص والمتميز ، وما انتهت إليه من مشاركته العرابيين فى الثورة ، ثم السجن ، والنفى ، بعد هزيمتهم فى سنة ١٨٨٢م .

٥ ـ مرحلة النفى : ورحلته من الشرق إلى الغرب ، ثم من الغرب إلى الشرق .. والعودة إلى مذهبه الأصلى المتميز فى طريق الإصلاح .

٦ ـ العودة من المنفى : وتبوؤه مكان الصدارة الفكرية فى العالم الإسلامى ، بعد أن نجحت السلطنة العثمانية فى سجن أستاذه الأفغانى فى قفص الذهب والجواسيس بالآستانة ، حتى لفظ فيها نفسه الأخير ! .

فهى إذاً « بطاقة حياة » من ست صفحات :

ـ ١ ـ

ولد « الشيخ محمد عبده حسن خير الله » فى قرية « محلة نصر » بمركز «شبراخيت » من أعمال مديرية (محافظة) « البحيرة » فى سنة ١٨٤٩م (سنة ١٢٦٥هـ) فى أسرة تعتز بكثرة رجالها ، ومقاومتهم لظلم الحكام ، وتحملهم فى سبيل ذلك العديد من التضحيات : هجرة ، وسجناً ، وتشريداً ، وموتاً ، وضياع ثروة .. وهو يحكى عن هذا الأمر فيقول : إنه قد سعى واش بأهلى «عند الحكام بحجة أنهم ممن يحمل السلاح ، ويقف فى وجوه الحكام وأعوانهم عند تنفيذ المظالم ، فأخذوا جميعاً ، وزجوا فى السجون واحداً بعد واحد ، ومن دخل منهم السجن لا يخرج إلا ميتاً ، وكان جدى « حسن » شيخاً بالبلدة ، وهو الذى بقى من البيت مع ابن أخيه إبراهيم » .

علَّمته هذه النشأة الاعتزاز بالمجد والأصالة ، وعدم الربط بين هذه الأصالة وبين الغنى والثروة ، والضن باحترامه على أهل الثراء ، خصوصاً المسرفين منهم والعاطلين عن الكفاءة ، وأيضاً الضن بهذا الاحترام على الحكام الظالمين. ولقد لمس الأفغانى فيه هذا الخلق السامى فقال له : « قل لى بالله .. أى أبناء الملوك أنت ؟! » وقال عنه الخديو عباس : « إنه يدخل على كأنه فرعون !! » .

تلقى تعليمه الأولى للقراءة والكتابة ، وحفظ القرآن ـ بالقرية ـ وبدأ ذلك وهو فى السابعة من عمره[1] .. ثم ذهب إلى « الجامع الأحمدى » بطنطا ليحضر هناك دروس تجويد القرآن الكريم فى سنة ١٨٦٢م (سنة ١٢٧٩هـ).

بدأ فى سنة ١٨٦٤م (سنة ١٢٨١هـ) يتلقى أول دروسه الأزهرية فى « الجامع الأحمدى » بعد أن استكمل تجويد القرآن .. ولكن أساليب التدريس العقيمة قد صدَّته عن قبول الدروس ، فقرر هجران الدراسة بعد عام من شروعه فيها ، وعاد إلى القرية سنة ١٨٦٥م (سنة ١٢٨٢هـ) ، وتزوج ، وعزم على العمل بالزراعة مع أبيه وإخوته والانقطاع عن سلك التعليم .. ولكن والده رفض ذلك ، وقرر إعادته إلى « الجامع الأحمدى » فى نفس العام .

ـ ٣ ـ

فى هذه الفترة التقى بالشيخ درويش خضر ـ خال والده ـ وهو صوفى كان

---

(١) يخطئ الأستاذ العقاد فى التأريخ لهذا الحدث فى كتابه عن الإمام ، فيجعله فى العاشرة من عمره سنة ١٨٥٩م .

على اتصال بالزاوية السنوسية ، فألقى إليه ببعض من حكمة التصوف ، وقاده إلى شئ من سلوك الصوفيـة ، فعادت إليه الرغبـة فى طلب العلم ، وعاد إلى «الجـامع الأحـمـدى » سنة ١٨٦٥م (سنة ١٢٨٢هـ) وبدأ يـفكر فى الذهاب إلى القاهرة كى يـلتحق بالجامع الأزهر .. وتحت تأثـير التصـوف حدث ذلك الذى صوَّر به تلك الرغبـة عندما كتب ليقـول : « فى يوم من شهر رجب من تلك السنة (سنة ١٢٨٢ هـ) كنت أُطالع بين الطلبـة ، وأقرر لهم فى « شرح الزرقانى » ، فرأيت أمـامى شخصاً يشبه أن يكـون من أولئك الذين يسمونهم بالمجـاذيب ، فلما رفـعت رأسى إليـه قـال ما معناه : مـا أحلى حلواء مصـر البيضـاء .. فقلت له : وأين الحلوى التى معك ؟ فقال : سبـحان الله ! من جدَّ وجد ! .. ثم انصـرف .. فعددت ذلك القول إلهـاماً ساقه الله إلى ، ليـحملنى على طلب العلم فى مصر ، دون طنطا » .

ذهب إلى الأزهـر ـ بمصـر ـ فـى فـبـرايـر سـنة ١٨٦٦م (شوَّال سـنـة ١٢٨٢هـ)[1] .

كـان بالأزهر يومئـذ حزبان : شـرعى محـافظ .. وحزب صـوفى أقل فى محافظته من الشرعيين . وحضر مـحمد عبده دروس كل من الحزبين ، فسمع من الحـزب الشـرعى المحـافظ دروس المشـايخ : عليش ، والرفـاعى ، والجيـزاوى ، والطرابلسى ، والبحراوى .. ولكنه انتمى إلى الحزب الصوفى ، وكان رائـده الشيخ حـسن رضوان (المتـوفى سنة ١٨٩٢م / سنة ١٣١٠هـ)

---

(١) يخطئ الأستاذ العقاد فى هذا التاريخ ويجعله سنة ١٨٦٥م .

صاحب منظومة « روض القلوب المستطاب » .. وكان من هذا الحزب الشيخ حسن الطويل ، والشيخ محمود البسيونى .

ـ ٣ ـ

زار الأفغانى مصر للمرة الثانية ، وطاب له المقام بها فى سنة ١٨٧١م (سنة ١٢٨٨هـ) فاتصل به محمد عبده ، ولازم مجلسه منذ شهر المحرم من ذلك العام[١] .. وودع لذلك حلقات الدروس الأزهرية العقيمة بأرجوزة نظمها وقال فيها :

لو كان هذا وصفهم ما شنعوا

بل وقتهم في « جاء زيد » ضيعوا

ظنوا بأن العلم علم القول .. لا

والله ، بل علم القلوب فضلا

انتقل به الأفغانى من « التصوف والتنسك » إلى « الفلسفة الصوفية » .. وكان الأفغاني يقول : « الفيلسوف إن لبس الخشن ، وأطال المسبحة ولزم المسجد فهو صوفي .. وإن جلس في قهوة « متاتيا »[٢] وشرب الشيشة فهو فيلسوف » !!

---

(١) يخطئ الأستاذ العقاد فيقول : إن الإمام لقى الأفغانى فى سنة ١٨٦٩م وهى السنة التى حدثت فيها زيارة الأفغانى الأولى والقصيرة لمصر ، وهو خطأ ينفيه تاريخ الإمام نفسه لبدء اتصاله بالأفغانى .

(٢) قهوة « متاتيا » ـ بميدان العتبة الخضراء ، بالقاهرة ـ كانت مقر ندوة الأفغانى مع مريديه .

كتب مقدمة « لرسالة الواردات » الفلسفية ، التى أملاها الأفغانى سنة ١٨٧٢م (سنة ١٢٩٠هـ) ، وهذه المقدمة هى أول الآثار الفكرية التى حفظت لنا من تراثه (وهى لم تُنشر إلا بعد وفاته) .

أول ما نشر باسمه كان « بالأهرام » فى سنته الأولى سنة ١٨٧٦م (سنة ١٢٩٣هـ) وكان لا يزال يلتزم السجع فى أسلوبه ، وسنه يومئذ كانت سبعة وعشرين عاماً .

دخل امتحان العالمية « فى سنة ١٨٧٧م » (١٣ جمادى سنة ١٢٩٤ هـ) ، ونالها من الدرجة الثانية ، وكانت سنه ثمانية وعشرين عاماً ، ولولا إصرار رئيس لجنة الامتحان الشيخ محمد المهدى العباسى - شيخ الأزهر - على نجاحه لرسب ؛ لأن بعض الأعضاء كانوا قد تواصوا على إسقاطه ، لآرائه وصحبته لجمال الدين الأفغانى .

واصل بعد تخرجه تدريس كتب المنطق ، والكلام المشوب بالفلسفة فى الأزهر .. وقد كان حتى قبل تخرجه يعيد على طلبة الأزهر إلقاء دروس الأفغانى فى منزله ، والكتب التى يشرحها ويعلّق عليها ، فقرأ لهم (إيساغوجى) فى المنطق ، و « شرح العقائد النسفية » لسعد التفتازانى ، مع حواشيه ، و «مقولات السجاعى بحاشية العطار » ، وغيرها .. وعقد فى بيته درساً شرح فيه لبعض الطلبة بعض المؤلفات الفكرية الحديثة والقديمة ، مثل : « التحفة الأدبية فى تاريخ تمدن الممالك الأوروبية » للوزير الفرنسى « فرانسوا جيزو » ، تعريب الخواجة نعمة الله خورى ، وقرظه فى « الأهرام » هو وأستاذه الأفغانى وكتاب « تهذيب الأخلاق » لابن مسكويه .

فى سنة ١٨٧٨م (أواخر سنة ١٢٩٥هـ) عيِّن مدرِّساً للتاريخ بمدرسة دار العلوم ، فقرأ على طلابها مقدمة ابن خلدون ، وألف لهم كتاباً ، ضاعت أصوله ، هو « علم الاجتماع والعمران » ، وعُيِّن مدرِّساً للعلوم العربية فى مدرستى الألسن والإدارة .

اشترك مع أستاذه الأفغانى فى التنظيمات السياسية السرية التى أنشأها الأفغانى بمصر ، فدخل (الماسونية) وكانت حسنة السمعة إلى حد كبير - يومئذ - للدور الذى قامت به فى أوروبا فى العصور الوسطى ضد استبداد الأباطرة وسلطة البابوات ، وسعيها فى سبيل الديمقراطية والتحرر ، وإبعاد نفوذ الكنيسة الرجعى عن دوائر البحث العلمى ، وتحرير عقول العلماء من إرهاب رجال الدين المحافظين ، ورفعها شعارات الثورة الفرنسية « الحرية ، والمساواة ، والإخاء » ولم يكن الأثر السياسى لمن فى قياداتها من اليهود قد ظهر بعد فى قضايا الشرق العربى المصيرية ، إذ لم تكن الحركة الصهيونية الحديثة قد ظهرت بعد ، ولا تكشفت نوايا اليهودية العالمية بالنسبة لفلسطين .. ومع كل ذلك فلقد خاب أمله فيها ، مع أستاذه عندما تحققا من مهادنتها للاستبداد، وصلاتها بالنفوذ الأجنبى - وخاصة الإنجليزى - ودخل مع أستاذه الأفغانى فى (الحزب الوطنى الحر) الذى كان شعاره « مصر للمصريين » - أى لا للأجانب ولا للشراكسة - والذى ضم الطلائع الوطنية المستنيرة من طبقات مصر فى ذلك الحين .

أبرز أعماله الفكرية فى هذه المرحلة - بعد دروسه وتدريسه - مقالاته فى الصحف ، وهى : « تقريظ جريدة الأهرام » و « الكتابة والقلم » و « العلوم

الكلامية والدعوة إلى العلوم العصرية » ، وتقديم تقريظ الأفغانى لكتاب : «التحفة الأدبية » .. كما صاغ في هذه المرحلة العديد من آثار أستاذه الأفغاني، مثل حاشيته على شرح الدوانى للعقائد العضدية ، وفلسفة التربية ، وفلسفة الصناعة ، ورسالة الواردات .. وصاغ أيضاً الرسالة التى ترجمها على باشا مبارك ، ونشرها بالأهرام بعنوان (المدبر الإنسانى والمدبر العقلى الروحانى) .

وأهم قسمة تميز بها إنشاؤه عن إنشاء غيره - ممن صاغ لهم أفكارهم وأماليهم - فى هذه المرحلة ، هى السجع .. فلقد كان يسجع عندما يُنشئ ، ويتخلَّى عندما يصوغ أفكار وأمالى الآخرين الذين لا يسجعون .

- ٤ -

فى يوليو سنة ١٨٧٩م (سنة ١٢٩٦هـ) نفى الأفغانى من مصر ، وعزل الإمام من مناصب التدريس فى مدرستى دار العلوم والألسن .. وحددت إقامته بقريته « محلة نصر » .

فى سنة ١٨٨٠م (أواسط سنة ١٢٩٧هـ) استصدر رياض باشا - ناظر النظار - عفواً من الخديو توفيق عن الإمام ، واستدعاه من قريته ، وعيَّنه محرراً ثالثاً فى « الوقائع المصرية » ، فاستهل كتابته بها فى ١٩ يوليو سنة ١٨٨٠م ، وفى ٩ أكتوبر من نفس العام عُيِّن رئيساً لتحريرها (محرر أول الصحيفة العربية الرسمية) ، وتولى مسئولية الرقابة على المطبوعات .

فى ٢٨ مارس سنة ١٨٨١م (٢٨ ربيع الآخر سنة ١٢٩٨هـ) أُنشئ المجلس الأعلى للمعارف العمومية ، وعيِّن الإمام عضواً فيه .

فى هذه الفترة أُبعد عن الاشتغال بالتدريس ، وعمل بالصحافة والسياسة .. ولذلك برز اختلافه عن الأفغانى فى وسيلة النهضة بالشرق والشرقيين (فهو عندما يدرس لا يختلف عن الأفغانى إلا فى درجة الميل إلى الفلسفة .. ولكن عندما يعمل بالسياسة العليا والمباشرة يبدو الفرق بينهما واضحاً .. فرق المُصلح من الثورى) .

انضم مع الحزب الوطنى الحر إلى العرابيين بعد مظاهرة عابدين فى ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١م ثم ألقى بكل قواه فى الثورة بعد المذكرة الثنائية «الإنجليزية ـ الفرنسية » إلى مصر فى يناير سنة ١٨٨٢م عندما تهددت الأخطار الأجنبية استقلال مصر . وظل فى مكانه من المسئولية والقيادة مع الثوار حتى هزيمة الثورة فى سبتمبر سنة ١٨٨٢م .

بعد هزيمة الثورة سجن ثلاثة أشهر .. ثم حكم عليه بالنفى ثلاث سنوات بدأت فى ٢٤ ديسمبرسنة ١٨٨٢م ، ولكنها امتدت إلى ما يقرب من ست سنوات .

أبرز أعماله الفكرية فى هذه المرحلة هى مقالاته ، وأغلبها نشر فى «الوقائع المصرية » .

ـ٥ـ

ذهب إلى « بيروت » منفياً فى ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٨٣م (١٣ صفر سنة ١٣٠٠هـ) ، وكانت سنه يومئذ أربعة وثلاثين عاماً ، فأقام بها نحو عام ، حتى دعاه أُستاذه الأفغانى إلى اللحاق به فى باريس فى أواخر سنة ١٨٨٣[1].

(١) يخطئ الاستاذ العقاد فيحدد سنة ١٨٨٤م تاريخاً لهذه الرحلة .

من حجرة صغيرة متواضعة فوق سطح أحد منازل باريس أخذ يعمل مع الأفغاني في إخراج جريدة « العروة الوثقى » ، لسان حال جمعية « العروة الوثقى » السرية التي قام تنظيمها في بلاد الشرق ، وخاصة مصر والهند .. فصدر منها ثمانية عشر عدداً ، أولها في ١٣ مارس سنة ١٨٤٤م (١٥ جمادي الأولى سنة ١٣٠١ هـ) ، وكان عمله في هذه الجريدة عمل « المحرر الأول » (رئيس التحرير) .

شغل في تنظيم « العروة الوثقى » السرى منصب نائب الرئيس (الأفغاني) .. ومارس العمل التنظيمي السرى .. وتنقل بهذه الصفة في بلاد كثيرة ، بعضها في أوروبا ، وبعضها في الشرق .. وكانت كثير من رحلاته هذه سرية ! ، ودخل مصر في هذه الفترة سرّاً (سنة ١٨٨٤م) أثناء اشتداد ثورة المهدى في السودان ، وباشر قيادة عمل الجمعية السرية[١] .. وكتب في هذه الفترة عدداً من الرسائل السرية إلى بعض فروع التنظيم .

زار « لندن » داعياً لوجوب جلاء الإنجليز عن مصر ، والتقى بوزير الحربية الإنجليزي ووجوه البرلمان والصحافة والرأي العام .

بعد توقف « العروة الوثقى » ، ويأسه من العمل السياسى المباشر كوسيلة لنهضة الشرق ، غادر باريس إلى تونس ، ومنها إلى بيروت سنة ١٨٨٥م ، على أمل العودة إلى مصر ثانية .

---

(١) هذه الحقيقة تذكر للمرة الأولى في التأريخ للأستاذ الإمام ، انظر أدلتها وتفصيلاتها في حديثنا عن فكره السياسي وعمله السياسي في هذه الفترة ، في مكانه من دراستنا التي قدمنا بها لأعماله الكاملة ج١ ص٧١ ـ ٧٣ .

فى هذه الفترة أسس جمعية سرية للتقريب بين الأديان ، شارك فيها عدد من رجال الدين المستنيرين ممن ينتمون إلى الأديان السماوية الثلاثة ... وكان يرى « أن أصول تلك الأديان والمذاهب حق ، ثم طرأ عليها الباطل ، فبعضها ثابت بما فيه من الحق ، وبعضها بما وضع له من النظام الموافق لسنن الكون والاجتماع ، فالنظام حق ، وهو ثابت باق بذاته ، وما في الجمعية أو المذهب من الباطل تابع له باق به ، مع عدم معارضة أهل الحق لما فيه من الباطل .. وأن التقريب بين الأديان مما جاء به الدين الإسلامى : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾[1] .. إن القرآن ـ وهو منبع الدين ـ يقارب بين المسلمين وأهل الكتاب ، حتى يظن المتأمل فيه أنهم منهم ، لا يختلفون عنهم إلا في بعض أحكام قليلة ، ولكن عرض على الدين زوائد أدخلها عليه أعداؤه اللابسون ثياب أحبائه فأفسدوا قلوب أهاليه ! » .

وفى بيروت مارس العمل الثقافى والتربوى والفكرى ، إلى جانب قليل من العمل السياسى المباشر بحكم الصلات التي كانت لا تزال قائمة بينه وبين الأفغاني وتنظيم « العروة الوثقى » .

ومن مقالاته السياسية التي كتبها ببيروت : « رسالة السير صمويل بيكر في السودان ومصر وإنكلترة » ، و « مصر وجريدة الجنة » و « مراسلات » . و«مصر والمحاكم الأهلية » ، وبعض الرسائل لعدد من الساسة والوجهاء ، ومنها أرسل بعض آراء الأفغانى وتنظيم « العروة الوثقى » في السياسة الشرقية فنشرت دون توقيع في « الأهرام » بالإسكندرية ، وفي نشاطه

---

(١) آل عمران : ٦٤ .

السياسي هذا كان ملتزماً بخط « العروة الوثقى » فى العداء الصريح والمباشر للإنجليز .

ومن مقالاته الاجتماعية في هذه الفترة مقال « الانتقاد » الذي كتبه في مجلة « ثمرات الفنون » .

برزت في بيروت جهوده التربوية وأعماله الثقافية والفكرية .. فكتب (لائحة إصلاح التعليم العثماني) و (لا ئحة إصلاح القطر السوري) ، وشرع في كتابة (لائحة إصلاح التربية في مصر) .. كما شرع في تحقيق كتب التراث العربى الإسلامى ، كرائد للمحققين العرب في العصر الحديث ، فحقق وشرح (مقامات بديع الزمان الهمذاني) ، و (نهج البلاغة) ، والتزم في التحقيق منهجا علمياً حدده فى تقديمه لمقامات بديع الزمان الهمذاني[1] .. كما عبَّر فى المقال الذى كتبه حول كتاب « فتوح الشام » المنسوب للواقدى عن المنهج العلمي في نقد النصوص وتحقيق نسبتها إلى أصحابها .. وهو المنهج الذي استخدمه من بعد ذلك الدكتور طه حسين في كتابه « في الشعر الجاهلى »[2] .

كما أتم في بيروت كذلك ترجمة « رسالة الرد على الدهريين » للأفغانى عن الفارسية بمساعدة تابع الأفغانى « عارف أفندى أبو تراب » وصدرها بترجمة هامة عن أستاذه الأفغانى .

اشتغل بالتدريس فى (المدرسة السلطانية) ببيروت سنة ١٨٨٦م (سنة

---

(١) انظر الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ج٢ ص٤١٤ ـ ٤١٦ .

(٢) المصدر السابق ، ج٢ ص٤٢١ ـ ٤٢٥ .

١٣٠٣هـ) فانتقل بها من مدرسة شبه ابتدائية إلى مدرسة شبه عالية .. ومن الكتب التي شرحها فيها (نهج البلاغة) و (ديوان الحماسة) و (إشارات ابن سينا) و (كتاب التهذيب) و (مجلة الأحكام العدلية العثمانية) .

كما ألقى فيها دروس التوحيد التى تحولت بعد عودته لمصر إلى (رسالة التوحيد) .

بدأ تفسير القرآن بمنهج عقلي حديث لم يسبق في الشرق منذ يقظته ، طبق فيه منهج أستاذه الأفغانى ، وكان ذلك بالمسجد العمرى ببيروت ، فكان يعقد درسه به ثلاث ليال فى الأسبوع ، واجتذب درسه هذا الحركة الفكرية والثقافية هناك ، حتى أن المستنيرين من المسيحيين كانوا يجتمعون على باب المسجد لسماعه ، ولما حالت ضوضاء الشارع دون سماعهم له طلبوا منه السماح لهم بدخول المسجد لمتابعة حديثه ، فسمح لهم بالوقوف داخل المسجد إلى جوار الباب ؟! .. واستمرت دروسه هذه في التفسير حوالي السنتين .. ولم يسجل لنا منها شئ ..

فى بيروت تزوج من زوجته الثانية ، بعد أن توفيت زوجته الأولى .

سعى من بيروت لدى أصدقائه كي يطلبوا له العفو ليعود إلى مصر .. وكان تلميذه سعد زغلول يلح على الأميرة نازلى هانم فاضل كى تستخدم نفوذها عند كرومر للعفو عن الإمام .. وسعى لذلك أيضاً الشيخ على الليثى والغازى أحمد مختار باشا ، وكيل السلطان بالقاهرة .. وعندما اقتنع كرومر بأن الإمام لن يعمل بالسياسة ، وأنه سيقتصر نشاطه على العمل التربوى والثقافى والفكرى استخدم نفوذه فى استصدار العفو من الخديو توفيق ، فعاد الأستاذ الإمام إلى مصر فى سنة ١٨٨٩م (سنة ١٣٠٦هـ) .

ـ ٦ ـ

عندما عاد الإمام إلى مصر أخـذ لنفسه سكناً في شارع « الشيخ ريحان » ، بالقـرب من قـصـر عابدين .. ولـما زاره صديقـه عـبـد العـزيز أفندى سلطان الطرابلسي ، وسأله عن سر اختـيـاره هذا المكان للسكنى ، قال : « حتى نناطح عابدين مناطحة » ؟! ..

كان يدرك أن الود المفقـود بينه وبين الخديو توفيق سيظل مفـقـوداً ، فسلك طريق العلاقات المباشرة مع اللورد كرومـر ، وقدَّم إليه ـ مباشرة ـ اللائحة التى كتبها لإصلاح التربية والتعليم بمصر .

أراد أن يمارس عـمله المحـبب ،وهو التدريس ، وخـاصـة فى دار العلوم . فرفـض الخديو توفـيق ، حتى لا يتـيح له فرصـه تربية الأجـيال الجـديدة على أساس من آرائه وأفكاره ، وعيَّنه الخديو سنة ١٨٨٩م قاضياً بمحكمة « بنها » ، كي يبـعده عن القـاهرة وعن التـدريس ، فـقبل على مـضض ، ثم انتـقل إلى محكمـة الزقازيق ، ثم مـحكمة عابدين ، ثم ارتقى إلى مـنصب مستـشار فى الاستئناف سنة ١٨٩١م .

فى هذه الفترة دارت مراسلات قليلة بينه وبين الأفـغاني في الآستانة ، بعد أن استقر بها سنة ١٨٩٢م .. ولكن موقف الإمـام من السياسة والإنجليز جلب عليه غضب أُستـاذه .. ولقد انقطعت المراسلات بينهما بعـد أن عنَّفه الأفغاني أكثر من مـرة على حذره وخوفه ، واتهـمه بالجبن ، وكتب إليه مـرة يقول له : « .. تكتب إلي ولا تمضي ؟! .. وتعـقـد الألغـاز ؟! .. من أعدائى ؟! .. ومـا الكلاب قلَّت أو كثرت ؟! .. كن فيلسوفاً تـرى العالم ألعوبة ، ولا تكن صبياً هلوعاً ؟! .. » .

وقال له في رسالة أخرى : « إن الرسالة ما وصلت .. ولا بينت لنا موضعها ، وجلاً منك ... قوّى الله قلبك ؟!! » .. وبلغ الأمر إلى حد توقف الإمام عن رثاء أستاذه في الصحف عندما مات في ٩ مارس سنة ١٨٩٧م ، واكتفى بالحزن عليه ، وقال : إن « والذى أعطانى حياة يشاركنى فيها « على » و « محروس » ، والسيد جمال الدين أعطانى حياة أشارك بها محمداً وإبراهيم وموسى وعيسى ، والأولياء والقديسين ، ما رثيته بالشعر لأنى لست بشاعر ، ما رثيته بالنثر لأننى لست الآن بناثر ، رثيته بالوجدان والشعور؛ لأننى إنسان أشعر وأفكر ؟! » .

* بعد موت الخديو توفيق ، وتولي الخديو عباس حلمي الثاني السلطة ، قامت فترة من الوفاق بين الأستاذ الإمام وبين العرش ، وكان أساسها أن الإمام أقنع الخديو بأن يعاونه في العمل لإصلاح المؤسسات التعليمية والتربوية والاجتماعية الثلاث : الأزهر ، والأوقاف ، والمحاكم الشرعية ... وفي سنة ١٨٩٥م (٦ رجب سنة ١٣١٢هـ) تشكل مجلس إدارة الأزهر ، برئاسة الشيخ حسونة النواوي ، ودخل فيه الأستاذ الإمام والشيخ عبد الكريم سلمان ممثلين للحكومة ، وكان حريصاً على أن يسير هذا المجلس وفق لائحته وقوانينه ، لا بمشيئة الخديو وحاشيته ، وقال للخديو يوماً أمام أعضاء المجلس : « إن مجلس إدارة الأزهر لا يعرف لسموكم أمراً عليه إلا بهذا القانون الذي بين يديه ، دون الأوامر الشفوية التي يبلغها عنكم من لا يثق به المجلس ؛ لمخالفته لقانونكم!» .

* اصطدمت سياسة الوفاق بينه وبين الخديو عباس بعاملين أساسين :

أولهما : مذهب الإمام المعتدل في السياسة إزاء الإنجليز ، والذي جعله يهادن كرومر وسلطة الاحتلال ، فلا يعتبر معركته المباشرة ضدهم ، وإنما ضد العقبات التي تحول دون إصلاح الأزهر ، والأوقاف ، والمحاكم الشرعية ، والتربية والتعليم ، وهو الموقف الذي رضي عنه الإنجليز ورحبوا به ؛ لأنه يتيح لهم الهدوء والاستقرار .

وثانيهما : معارضة الأستاذ الإمام وحسن باشا عاصم لمطامع الخديو في أراضي الأوقاف ، عندما أراد استبدال بعض أراضيه بأخرى من أراضي الأوقاف .. وبذلك انتهت فترة الوفاق هذه إلى مرحلة من الحذر والعداء ، استمرت من سنة ١٩٠٢م حتى وفاة الأستاذ الإمام .

* فى سنة ١٨٩٢م (سنة ١٣١٠هـ) اشترك في تأسيس « الجمعية الخيرية الإسلامية » التي تهدف لنشر التعليم وإعانة المنكوبين ، وتولى رئاسة هذه الجمعية فى ١٩٠٠م (سنة ١٣١٨هـ) .

* فى ٣ يونيو سنة ١٨٩٩م (٢٤ محرم سنة ١٣١٧هـ) عُيِّنَ في منصب مفتي الديار المصرية .. وتبعاً لهذا المنصب أصبح عضواً في مجلس الأوقاف الأعلى ، فسعى إلى إصلاحها ، وإصلاح المساجد بوضع وتطبيق اللائحة التى ضمنها أفكاره لإصلاح هذا المرفق الإسلامى الهام .

* فى ٢٥ يونيو سنة ١٨٩٩م (١٨ صفر سنة ١٣١٧هـ) عُين عضواً في «مجلس شورى القوانين » .

* فى سنة ١٩٠٠م (سنة ١٣١٨هـ) أسس « جمعية إحياء الكتب العربية » ، فحققت ونشرت عدداً من آثار التراث الإسلامي الفكرية الهامة ..

وشارك الإمام فى عمل هذه الجمعية باستحضار المخطوطات ، واستكمال نسخها ، ومراسلة الملوك والسلاطين والقضاة لهذا الغرض ، ومقابلة النسخ المخطوطة والشرح والتعليق على هذه الآثار الفكرية الهامة .

* فى هذه الفترة من حياته سافر إلى خارج مصر عدة مرات .. إلى الشام .. وإلى أوروبا أكثر من مرة ، أشهرها رحلته إليها سنة ١٩٠٣م (سنة ١٣٢١هـ) ، ومنها عرَّج على تونس والجزائر ، ثم صقلية وإيطاليا .. كما سافر إلى السودان فى المدة من ١٨ حتى ٣١ يناير سنة ١٩٠٥م .

بدأ فى هذه المرحلة يلقى دروسه في القرآن الكريم بالجامع الأزهر من يونيو سنة ١٨٩٩م (شهر المحرم سنة ١٣١٧ هـ) ، واستمر فى إلقائها نحو ست سنوات ، أى حتى وفاته .. وبلغ فى التفسير من أول القرآن حتى الآية ١٢٥ من سورة النساء .. وكان الشيخ رشيد رضا يدوِّن مُلخصاً ـ فى الدرس ـ لهذا التفسير ، وبعد عام من بدئه أخذت تنشره مجلة « المنار » (عدد محرم سنة ١٣١٨هـ / مايو سنة ١٩٠٠م) ، واستمر ينشر فيها شهرياً حتى عددها الخامس من سنتها الخامسة عشرة (٣٠ جمادى الأولى سنة ١٣٣٠هـ / ١٧ مايو سنة ١٩١٢م) .. وبعد ذلك أخذ رشيد رضا يواصل التفسير منفرداً بالعمل فيه .

* من أبرز أعماله الفكرية فى هذه المرحلة : فتاويه ، وأحاديثه للصحف والمجلات ، و « رسالة التوحيد » ، وتحقيق وشرح « البصائر النصيرية » للطوسى ، وتحقيق وشرح « دلائل الإعجاز » ، و« أسرار البلاغة » للجرجانى ، و « الرد على هانوتو » ، ومقالات الاضطهاد فى النصرانية

والإسلام ـ « الإسلام والنصرانية ، مع العلم والمدنية » ـ التى رد بها على فرح أنطون سنة ١٩٠٣م ـ و « تقرير إصلاح المحاكم الشرعية » سنة ١٨٩٩م .. والفصول التى شارك بها فى كتاب « تحرير المرأة » لقاسم أمين سنة ١٨٩٩ م ، والفصول التى شرع بها الترجمة لحياته ، ومقالات « المستبد العادل » ، و«الرجل الكبير فى الشرق » و « آثار محمد على فى مصر » .. ومجموعة ملاحظاته وآرائه حول الثورة العرابية ، سواء منها ما كتبه في مشروعه لتأريخها بطلب من الخديو عباس ، أو ما كتبه لصديقه القديم « بلنت » .. وأيضاً ترجمته لكتاب « التربية » لهربرت سبنسر عن الفرنسية التي تعلَّمها فى هذه المرحلة من حياته .. وكذلك وصيته التربوية التي أملاها بالفرنسية فى مرضه الأخير على « الكونت دى جريفل » ، فنشرها فى كتابه « مصر الحديثة » .

فى مارس سنة ١٩٠٥م (محرم سنة ١٣٢٣هـ) استقال من مجلس إدارة الأزهر احتجاجاً على مؤامرات الخديو عباس التى حال بها دون سير الإصلاح فى هذه الجامعة الكبيرة .

وفى الساعة الخامسة من مساء يوم ١١ يوليو سنة ١٩٠٥م (٧ جمادى الأولى سنة ١٣٢٣م) توفى الأستاذ الإمام بالإسكندرية عن سبعة وخمسين عاماً .. وعن ثلاث بنات .. وعن حياة فكرية خصبة .. وجهود في التربية والإصلاح ... ومواقف تجسِّد عظمة الإنسان المصرى ، وكبرياء لا يمكن أن تموت ... فلقد كان عقلاً من أكبر عقول الشرق والعروبة والإسلام في عصرنا الحديث ... والموت إنما يصيب الأجسام ، أما هذه العقول الفعالة فإنها لا تموت !! ..

الإصلاح الدينى

(يجب تحرير الفكر من قيد التقليد ، وفهم الدين على طريقة سلف هذه الأمة قبل ظهور الخلاف ، والرجوع فى كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى .. والنظر إلى العقل باعتباره قوة من أفضل القوى الإنسانية ، بل هى أفضلها على الحقيقة) .

محمد عبده

فى أخريات حياة الأستاذ الإمام ، وعندما شرع في كتابة فصول يترجم فيها لحياته ويسجل بها سيرته ، حدد الأهداف التى ارتفع بها صوته ، وبذل فى سبيل تحقيقها جهده وحياته ، فى ثلاثة أهداف :

١ - الإصلاح الدينى : وتحرير الفكر من قيد التقليد ..

٢ - والإصلاح اللغوى : بجعل حاضرنا اللغوى والأدبى امتداداً لعصرنا الذهبي وتخطى عصور الركاكة والعجمة التى غرق فيها أدبنا في الشكليات والزخارف ، والمحسنات ..

٣ - والإصلاح السياسى (قبل أن يهجر السياسة ، ويتفرغ للهدفين الأولين) .

والرجل قد حدَّد هدفه من الإصلاح الدينى عندما قال عنه : إنه يعنى

«تحرير الفكر من قيد التقليد ، وفهم الدين على طريقة سلف هذه الأمة قبل ظهور الخلاف والرجوع في كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى ، واعتباره ضمن موازين العقل البشري التي وضعها الله لترد من شططه ، وتقلل من خلطه وخبطه ؛ لتتم حكمة الله في حفظ نظام العالم الإنساني ، وإنه على هذا الوجه يعد صديقاً للعلم ، باعثاً على البحث في أسرار الكون ، داعياً إلى احترام الحقائق الثابتة ، مُطالباً بالتعويل عليها فى أدب النفس وإصلاح العمل .. كل هذا أعده أمراً واحداً ..

وقد خالفت فى الدعوة إليه رأى الفئتين العظيمتين اللتين يتركب منهما جسم الأمة : طلاب علوم الدين ومن على شاكلتهم ، وطلاب فنون هذا العصر ومن هو فى ناحيتهم »[1] .

ونحن لا نريد أن نفيض فى عرض البناء الفكرى شبه المتكامل الذي أقامه الأستاذ الإمام في هذا الميدان .. ولكن الذى نود الإشارة إليه هنا هو تقدير الأستاذ الإمام للعقل الإنسانى ، ومكانته ، ، وقدراته في البحث والنظر والوصول إلى حقائق الأشياء في هذا الكون وهذه الحياة .. حتى أنه قد جعل منه المرتكز الأول والأساسى للنشاط الإنساني في حقل التربية والتعليم .. وهذه الإشارات التى نود إيرادها هنا عن مقام العقل في الإصلاح الدينى عند الأستاذ الإمام ، يمكن أن نوجزها فى عدد من النقاط .. وذلك مثل :

١ ـ **إعلاؤه شأن العقل فى تفسير القرآن** : وهو كتاب الدين الأول والأساسى ، ورأيه في وجوب أن يطرح الذين يريدون تفسير القرآن تفسيراً حديثاً مستنيراً ، أن يطرحوا جانباً « رؤية » السابقين من المفسرين ، وأن

---

(١) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ، ج٢ ص٣٠٨ .

يتزودوا فقط بالأسلحة والأدوات اللغوية ومعلومات السيرة النبوية ، ومعارف التاريخ الإنساني عن حياة الكون والشعوب التي يعرض لها القرآن الكريم ..

فهو يعتبر أن « رؤية » المفسرين السابقين قد ارتبطت بالمستوى العقلي ودرجة العلم التي بلغوها وتحصلت لمجتمعاتهم وبيئاتهم الثقافية ، وليس بالضرورة أن يكون عقلنا واقفاً عندما بلغوه فقط ، ولا أن تكون حصيلتنا الفكرية هي فقط ما حصَّلوه .. وهو لذلك يحدد منهجه في تفسير القرآن ، ويدعو إليه عندما يخاطب أحد أعضاء جمعية (العروة الوثقى) ، فيقول له : « داوم على قراءة القرآن ، وتفهم أوامره ونواهيه ، ومواعظه وعبره ، كما كان يُتلى على المؤمنين والكافرين أيام الوحي ، وحاذر النظر إلى وجوه التفاسير إلا لفهم لفظ مفرد غاب عنك مراد العرب منه ، أو ارتباط مفرد بآخر خفي عليك متصله ، ثم اذهب إلى ما يشخصك القرآن إليه ، واحمل بنفسك على ما يحمل عليه ، وضم إلى ذلك مطالعة السيرة النبوية ، واقفاً عند الصحيح المعقول ، حاجزاً عينيك عن الضعيف والمبذول »[1] .

٢ ـ **إعلاؤه شأن العقل كقوة من قوى الإنسان** : عند مقارنته بالقوى الأخرى التي يتمتع بها هذا الإنسان ، والأستاذ الإمام يقف في هذا الأمر قريباً جداً من موقف الفلاسفة الإلهيين ـ ومنهم المعتزلة ـ بين مدارس المتكلمين المسلمين ، فهو يعتبر كل النتائج التي يصل إليها العقل سبلاً توصل إلى ذات الله ، أي أن طريق العقل هو طريق معرفة الله ، ولذلك فهو يقول : « إن العقل من أجلِّ القوى ، بل هو قوة القوى الإنسانية وعمادها ، والكون جميعه هو

---

(١) المصدر السابق ج١ ص٥٨٩ .

صحيفته التى ينظر فيها وكتابه الذى يتلوه ، وكل ما يُقرأ فيه فهو هداية إلى الله وسبيل للوصول إليه » .

فليس هناك إذن صفحات في هذا الكون محظور على العقل الإنسانى أن يطالعها ويرى فيها ما يراه ، ذلك أن الحدود التي تحدد نطاق النظر العقلي هي حدود « الفطرة » لا « النصوص المأثورة » ، فالله قد « أطلق للعقل البشرى أن يجري فى سبيله الذى سنته له الفطرة بدون تقييد .. » ، وما ذلك إلا لأن «العقل قوة من أفضل القوى الإنسانية ، بل هى أفضلها على الحقيقة .. »[1] .

٣ ـ **وفيما يتعلق بالنصوص المأثورة عن السابقين** : يفرّق الأستاذ الإمام ما بين القرآن وبين غيره من النصوص ، ففيما يتعلق بغير القرآن من النصوص لا يرى الرجل لنص حصانة تعلى من شأنه على شأن العقل وما يصل إليه من براهين ومعطيات ، ذلك أن الرواة ورجالات السند ، لا نستطيع نحن ـ بما لدينا من معلومات ـ أن نجعل من مروياتهم هذه حججاً تعلو حجة العقل الذى هو أفضل القوى الإنسانية على الإطلاق .. وعن قيمة هذه الأسانيد يتحدث الأستاذ الإمام إلى أحد علماء الهند فيقول له : « ما قيمة سند لا أعرف بنفسى رجاله ، ولا أحوالهم ولا مكانهم من الثقة والضبط ؟ وإنما هى أسماء تتلقفها المشايخ بأوصاف نقلدهم فيها ، ولا سبيل لنا إلى البحث فيما يقولون ؟! »[2] .

والأستاذ الإمام لا يكتفى فى هذا الباب ـ الذى تدخل فيه أحاديث الآحاد ، وهى أغلب ما روى من أحاديث ـ لا يكتفى بثقة الراوى فيمن روى

---

(١) المصدر السابق ، ج٣ ص٢٩٨ .

(٢) المصدر السابق ، ج٣ ص١٩٨ .

عنه ، بل يطلب أن تتوافر لنا نحن مقومات ثقتنا فى هؤلاء الرواة ، وهو أمر مستحيل ، فيقول : « إن ثقة الناقل بمن ينقل عنه حالة خاصة به ، ولا يمكن لغيره أن يشعر بها حتى يكون له مع المنقول عنه فى الحال مثل ما للناقل معه فلابد أن يكون عارفاً بأحواله وأخلاقه ودخائل نفسه ، ونحو ذلك مما يطول شرحه ويحصل الثقة للنفس بما يقول القائل »[1] وهكذا لا سبيل أمامنا ولا مفر من عرض هذه « المأثورات » على القرآن ، فما وافقه كان القرآن هو حجة صدقه ، وما خالفه فلا سبيل لتصديقه ، وما خرج عن الحالتين فالمجال فيه لعقل الإنسان .

أما فيما يتعلق بنص القرآن ، فإن الأستاذ الإمام يسمو به عن مواطن الاشتباه ، ويرتفع به عن منازل الجدل ، لا بفرض ظواهر آياته على معطيات العقل وبراهينه ومنجزات العلم وثمراته ، وإنما بتحديد الإطار الذى يهتدى فيه الإنسان بالعقل والعلم دون أن يقع فى حرج المخالفة لنصوص القرآن .. فالقرآن كتاب دين أولاً وقبل كل شئ ، وهو في تعرضه لآثار الله في الأكوان لم يتعرض لها تعرّض المدلي بالحقيقة وإنما تعرض المستهدف للعبرة والعظة، وعندما يعرض للحديث عن الطبيعة لا يعرض لها عرض المقرر للقواعد العلمية ، الداعى إلى الإيمان والالتزام بهذه القواعد ، وإنما عرض من يستخدم هذه الأمور وسائل للبرهنة والاستدلال على وجود الفاعل فى هذا الكون وقدرته ووحدانيته « فالقرآن يذكر إجمالاً من آثار الله فى الأكوان ؛ تحريكاً للعبرة ، وتذكيراً بالنعمة ، وحفزاً للفكرة ، لا تقريراً لقواعد الطبيعة ، ولا

(١) المصدر السابق ج٤ ص٦٨ ، ٦٩ .

إلزاماً باعتقاد خاص فى الخليقة ، وهو فى الاستدلال على التوحيد لم يفارق هذا السبيل..»[1] .

وهو يشير في هذا النص إلى محاولات البعض تكذيب نصوص القرآن التى عرضت لقصة الخليقة ـ (نشأة الحياة الإنسانية وقصة آدم) ـ وذلك بعرضها على نظريات العلم فى هذا الميدان ، فيذكر صراحة أن القرآن لا يُلزم باعتقاد خاص في هذا الأمر ، وأن آياته في هذا الموضوع لا تقرِّر للطبيعة القواعد ، وإنما هي مسوقة لأهداف إلهية غايتها الهداية والموعظة وضرب المثال ؛ كي تتحرك الطاقات الخيِّرة والعاقلة فى الإنسان إلى ما يحقق السعادة لنوعه مادياً ومعنوياً .

ونحن إذا شئنا أن « نصنِّف » موقف الأستاذ الإمام هذا بين مواقف المفكرين، نستطيع أن نقول : إن الرجل كان صاحب نظرة « سلفية عقلية » تميز بها عن مواقف « السلفيين » الذين اكتفوا بالموقف « السلفي » وعن «العقلانيين » الذين انطلقوا من منطلق العقل فقط لا غير .

فأغلب الذين اتخذوا الموقف السلفي نراهم قد أعلوا من قدر النصوص المأثورة عن الأولين على قدر العقل ، وهذا ما رفضه الأستاذ الإمام عندما أعلَى من قدر العقل واعترف له بمكانه الممتاز بين القوى الإنسانية المختلفة ..

وأغلب الذين انطلقوا من منطلق العقل فقط قد أهدروا قيمة النصوص المأثورة دون تمييز بين هذه النصوص .. وهذا ما لم يصنعه الأستاذ الإمام عندما ميَّز بين ما هو متواتر لا يرقى إليه الشك ـ مثل القرآن الكريم ـ وبين ما جاءنا بواسطة رواة لا نستطيع التأكد من صدقهم وأسانيد لا نملك التحقق من

---

(١) المصدر السابق ، ج٣ ص٢٧٩ .

سلامتها ووفائها بالمطلـوب .. فالرجل يدعو إلى « سلفية » تعود بنا إلى ينابيع الدين النقية ونصوصه البكر وحـقائقه الجوهرية .. وهو يدعو إلى أن ننظر فى هذه المنابع الأولى بملكة العـقل العصرى المسـتنير ، وأن نُسقط لذلك أسـاطير الأولين ، وأن نرفض بعد ذلك كل مـا يتعارض مع معطيات العـقل العصري المستنير بعد نظره وبحثه فيمـا هو جوهرى وبكر ونقى من عقائد الإسلام كما جاء بها كتابه الكريم .

***

الإسلام والسلطة الدينية

(ليس فى الإسلام سلطة دينية .. وأصل من أصوله : قلبها والإتيان عليها من أساسها .. والخلافة هى بالسياسة أشبه ، بل هى أصل السياسة .. والخليفة حاكم مدنى من جميع الوجوه)

محمد عبده

فى الفترة التاريخية التى عاش فيها الأستاذ الإمام كانت قضية « الجامعة الإسلامية » من القضايا الفكرية وقضايا السياسة العملية المطروحة للبحث والجدل ، فقامت لها تيارات وأحزاب ، وعارضتها تيارات وأحزاب ، وعرضت من مواقع متباينة ، ولغايات وأهداف متباينة أيضاً .. ولكن الذي جمع كل هذا الخليط المتنافر الذى نادى بها هو هذا الشعار ، شعار « الجامعة الإسلامية » .

ولعلَّ أبرز الوجوه وأعلى الأصوات التى علت بهذا الشعار في ذلك التاريخ كان هو صوت جمال الدين الأفغانى ، وكان لهذا الشعار عنده مضامين محددة ميزته عما كان يعنيه ـ مثلاً ـ لدى السلطان عبد الحميد ، وهذه قضية قد سبق لنا بحثها فى تقديمنا لأعمال الأفغانى الكاملة[1] .

---

(١) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى ص٢٩ ـ ٥٥ ، وانظر أيضاً دراستنا عن الأفغاني بمجلة « الطليعة » المصرية ، عدد أبريل سنة ١٩٦٩م .

أمـا موقف الأسـتـاذ الإمام من هذه القـضـيـة فـإننا نعـتقـد أنه من المواقف الفكرية الخصبة والهامة التي خلّفـها لنا هذا المفكر الكبير .. ونحن نستطيع أن نتلّمس مـوقفـه منها ونُلم بآرائه إزاءها إذا نحن درسنا وقـيّمنا كـتاباته بـصدد الموقف من طبيـعة السلطة السـياسيـة في المجتمع .. هل هي سـلطة دينية ؟ أم مدنية ؟ ورأى الإسلام كما فهمه الأستاذ الإمام فى هذا الموضوع .

فنحن عندئذ نلتقى بفكر واضح ومحدّد وحاسمٍ قدّمـه الشيخ محمد عبده فى هذا الموضوعَ.. فهـو يرفض رفضاً قاطعاً أن يكون الدين الإسـلامى نصيراً لقيام سلطة دينية فى المجتمع بأي وجه من الوجوه ، وبأى شكل من الأشكال، ويقيم على ذلك الحجج ويقدّم لذلك البراهين ..

فهو يقول مثـلاً : « إنه ليس فى الإسلام سلطة دينية ، سوى سلطة الموعظة الحسنة والدعـوة إلى الخير والتنفير عن الشر ، وهى سلطة خـولّها الله لأدنى المسلمين يقـرع بـها أنـف أعـلاهم ، كـمـا خولّـهـا لأعلاهـم يتناول بهـا من أدناهم»(١) .

بل يذهب إلى مـا هو أبعد من هذا ، فـيرى أن إحـدى المهام التى جـاء لها الإسلام ونهض بهـا فى المجتمع الذى ظهر فـيه والتى تُعتبر أصـلاً من أصوله هي قلب السلطة الدينية واقتلاعهـا من الجذور ، فيقول : « .. أصل من أصول الإسلام .. قلب السلطة الدينية والإتيان عليهـا من أساسها . هدم الإسلام بناء تلك السلطة ، ومحـا أثرها ، حتى لم يبق لها عند الجمـهور من أهله اسم ولا رسـم ، لم يـدع الإسلام لأحـد ـ بعد الله ورسولـه ـ سلطاناً على عقيـدة أحد

---

(١) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ، ج٣ ص٢٨٨ .

ولا سيطرة على إيمانه . على أن الرسول ـ عليه السلام ـ كان مبلِّغاً مذكِّراً ، لا مهيمناً ولا مسيطراً[١] .. وليس لمسلم ، مهما علا كعبه ـ في الإسلام ـ على آخر ـ مهما انحطت منزلته فيه ـ إلا حق النصيحة والإرشاد ... فالمسلمون يتناصحون ، وهم يقيمون أُمة تدعو إلى الخير والإرشاد .. وهم المراقبون عليها ، يردونها إلى السبيل السوى إذا انحرفت عنه ، وتلك الأُمة ليس لها عليهم إلا الدعوة والتذكير والإنذار ، ولا يجوز لها ولا لأحد من الناس أن يتتبع عورة أحد ، ولا يسوغ لقوى ولا لضعيف أن يتجسس على عقيدة أحد ، وليس يجب على مسلم أن يأخذ عقيدته أو يتلقى أصول ما يعمل به من أحد، إلا عن كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ . لكل مسلم أن يفهم عن الله من كتاب الله ، وعن رسوله من كلام رسوله ، بدون توسيط أحد من سلف ولا خلف ، وإنما يجب عليه قبل ذلك أن يحصل من وسائله ما يؤهله للفهم .. فليس فى الإسلام ما يسمى عند قوم بالسلطة الدينية بوجه من الوجوه[٢] .. ولم يعرف المسلمون فى عصر من الأعصر تلك السلطة الدينية التى كانت للبابا عند الأمم المسيحية عندما كان يعزل الملوك ، ويحرم الأمراء ، ويقرِّر الضرائب على الممالك ، ويضع لها القوانين الإلهية »[٣] .

وإذا كانت هذه النصوص المتقدمة قد انصبت أساساً وبشكل مباشر على نفي وجود « سلطة دينية » فى الإسلام لما يمكن أن يسمى « رجل الدين » فإن

---

(١) انظر هذه الفكرة بعينها فى كتاب الشيخ على عبد الرازق « الإسلام وأصول الحكم » ، الذى صدر سنة ١٩٢٥م .

(٢) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ، ج٣ ص٢٨٥ ، ٢٨٦ .

(٣) المصدر السابق ج٣ ص٢٣٣ .

الأستاذ الإمام يمد نطاق هذا الفكر وذلك الموقف إلى السلطة السياسية في المجتمع الإسلامي ، فيرى أن الحاكم في هذا المجتمع « هو حاكم مدني من جميع الوجوه » وأن اختياره وعزله إنما هما أمران خاضعان لرأي البشر لا لحق إلهي تمتع به هذا الحاكم بحكم الإيمان .. وهو يرى أن تقرير « مدنية » السلطة السياسية في المجتمع لا يتنافى بحال من الأحوال مع وجود « الشرع » إلى جانب « الدين » في الإسلام ، فيقول : « .. ولكن الإسلام دين وشرع ، فقد وضع حدوداً ، ورسم حقوقاً ، وليس كل معتقد في ظاهر أمره بحكم يجري عليه في عمله ، فقد يغلب الهوى ، وتتحكم الشهوة ، فيغمط الحق ، ويتعدى المعتدى الحد . فلا تكمل الحكمة من تشريع الأحكام إلا إذا وجدت قوة لإقامة الحدود ، وتنفيذ حكم القاضي بالحق ، وصون نظام الجماعة ، وتلك القوة لا يجوز أن تكون فوضى في عدد كثير ، فلابد أن تكون في واحد وهو السلطان أو الخليفة .. فالأمة أو نائب الأمة ، هو الذي ينصبه ، والأمة هي صاحبة الحق في السيطرة عليه ، وهي التي تخلعه متى رأت ذلك من مصلحتها ، فهو حاكم مدني من جميع الوجوه .

ولا يجوز لصحيح النظر أن يخلط الخليفة عند المسلمين بما يسميه الإفرنج « ثيوكراتيك » أي : سلطان إلهي ، فإن ذلك عندهم هو الذي ينفرد بتلقي الشريعة عن الله ، وله حق الأثرة بالتشريع ، وله في رقاب الناس حق الطاعة ، لا بالبيعة وما تقتضيه من العدل وحماية الحوزة ، بل بمقتضى الإيمان ، فليس للمؤمن ـ مادام مؤمناً ـ أن يخالفه ، وإن اعتقد أنه عدو له ولدين الله ، وشهدت عيناه من أعماله ما لا ينطبق على ما يعرفه من شرائعه ؛ لأن عمل

صاحب السلطان الديني وقوله في أي مظهر ظهرا هما دين وشرع .. »[1] .

وهو لا ينفي وجود السلطان الديني والسلطة الدينية عن القيادة السياسية العليا للمجتمع فحسب ، بل وينفي اعتراف الإسلام بها أو إقراره لها بالنسبة لأية مؤسسة من المؤسسات التي تمارس سلطة من السلطات في مجتمع المسلمين ، مثل المؤسسات التي تتولى « القضاء » أو « الإفتاء » أو قيادة «علماء الدين » (شيخ الإسلام) .. فيتحدث قائلاً : « .. يقولون : إن لم يكن للخليفة ذلك السلطان الديني ، أفلا يكون للقاضي ؟ أو للمفتي أو لشيخ الإسلام ؟؟ .. وأقول : إن الإسلام لم يجعل لهؤلاء أدنى سلطة على العقائد وتقرير الأحكام ، وكل سلطة تناولها واحد من هؤلاء فهي سلطة مدنية قدرها الشرع الإسلامي ، ولا يسوغ لواحد منهم أن يدّعي حق السيطرة على إيمان أحد ، أو عبادته لربه ، أو ينازعه في طريقة نظره »[2] .

وهو يرى أن منبت هذه القضية : قضية توحيد السلطة السياسية والدينية ، إنما هو الدين المسيحي ، في صورته التي جسّدها لاهوت الكاثوليكية الأوروبية ، الذي جعل ذلك أصلاً من أصوله ، بينما يقف الإسلام ضد هذا التوحيد والجمع بين السلطتين ، فيقول : إن الجمع بين السلطتين السياسية والدينية « هو الذي يعمل البابوات وعمالهم من رجال « الكثلكة » على إرجاعه ؛ لأنه أصل من أصول الديانة المسيحية عندهم ، وإن كان ينكر وحدة السلطة الدينية والمدنية من لا يدين بدينهم »[3] .

---

(١) المصدر السابق ، ج٣ ص٢٨٧ ، ٢٨٨ .

(٢) المصدر السابق ، ج٣ ص٢٨٩ .

(٣) المصدر السابق ج٢ ص١٧٥ .

ولا ينسى الرجل أن يلتفت إلى أحداث التاريخ الإسلامى ليقوّمها بهذا المعيار ، فيصف الفتوحات الإسلامية بأنها أعمال سياسية حربية تتعلّق بضرورات الملك ومقتضيات السياسة ، ومن ثم فهي ليست بالحروب «الدينية» ، فلقد « أشهر المسلمون سيوفهم دفاعاً عن أنفسهم وكفاً للعدوان عليهم . ثم كان الافتتاح بعد ذلك من ضرورة الملك .. »[1] .. وهذا ينطبق على الحروب التى دارت بين الفرق الإسلامية ، فهى لم تكن حروب « عقيدة دينية » وإنما كانت حروباً « سياسية » فنحن « نعرف بحروب الخوارج ، كما وقع من القرامطة ، وغيرهم ، وهذه الحروب لم يكن مثيرها الخلاف في العقائد ، وإنما أشعلتها الآراء السياسية في طريقة حكم الأمة ، ولم يقتتل هؤلاء مع الخلفاء لأجل أن ينصروا عقيدة ، ولكن لأجل أن يُغيِّروا شكل حكومة ، وما كان من حرب بين الأمويين والهاشميين فهو حرب على الخلافة، وهي بالسياسة أشبه ، بل هى أصل السياسة .. »[2] .

وهذا الموقف الذى اتخذه الشيخ محمد عبده ضد وجود سلطة دينية في الإسلام ، ونفى هذه الصبغة عن كل مؤسسات الحكم فى المجتمع الإسلامى ، ورفض الدعاوى التي تريد أن تستعير من المسيحية الجمع بين السلطتين الدينية والمدنية ، زاعمة كذباً أن لذلك الجمع صلة بتعاليم الإسلام .. موقف الرجل هذا قد قاده إلى الإيمان بمدنية السلطة في المجتمع ، ومدنية مؤسسات هذا المجتمع ، ومن ثم إلى اتخاذ الطابع القومى المدنى ـ الذى لا يفرِّق بين المواطنين بسبب الاعتقاد الدينى ـ أساساً ومنطلقاً وصيغة لنظام الحكم في

---

(١) المصدر السابق ج٣ ص٤٦٢ .

(٢) المصدر السابق ج٣ ص٢٥١ .

البلاد .. ونحن نقدم له في هـذا الباب نَصَّين على جانب كبيـر من الأهمية في تقرير موقفه هذا من الطابع القومى للسلطة فى البلاد .

ففى المادة الخامسة من برنامج الحزب الوطني المصرى الذى صاغه الشيخ محمد عبده فى ديسمبر سنة ١٨٨١م يتخذ هذا الموقف الفكرى ، وحتى يؤكد أنه موقفه هو وموقف زملائه من علماء الأزهر ، وليس فقط موقف الحزب ، ينص في هذه المادة على أن هذا الأمر « مسلَّم به عند أخص مشايخ الأزهر الذين يعضدون هذا الحزب » .. أما نص هذه المادة الهامة من برنامج الحزب فيقول : « الحزب الوطني حزب سياسي ، لا دينى[1] ، فإنه مؤلف من رجال مختلفي العقيدة والمذهب ، وجميع النصارى واليهود ، وكل من يحرث أرض مصر ويتكلم لغتها منضم إليه ؛ لأنه لا ينظر لاختلاف المعتقدات ، ويعلم أن الجميع إخوان ، وأن حقوقهم فى السياسة والشرائع متساوية ، وهذا مسلَّم به عند أخص مشايخ الأزهر الذين يعضدون هذا الحزب ويعتقدون أن الشريعة المحمدية الحقة تنهى عن البغضاء ، وتعتبر الناس فى المعاملة سواء»[2] .

وتعبيراً عن التمييز فى الموقف والنظرة بين « النصارى » الأوروبيين وبين «النصارى » المصريين مثلاً ، تفرد هذه المادة نصًا خاصاً لهؤلاء « الأجانب» الذين لابد من خضوعهم لقوانين البلاد كى يكونوا موضع حب ورعاية من

---

(١) بمعنى أنه ليس حزباً دينياً ، تقتصر عضويته وفكريته على دين معين .. وليس بمعنى أنه ضد الدين .

(٢) المصدر السابق ج١ ص٣٦٩ .

الوطنيين المصريين . فالجامعة « الوطنية القومية » تضم المصريين على اختلاف الأديان والمعتقدات ، ولم ولن تكون جامعة الدين بين « نصارى مصر » و « نصارى أوروبا » أرضاً مشتركة بين هؤلاء وهؤلاء ! » .

وفي سنة ١٨٨٨م - وكان الأستاذ الإمام لا يزال في المنفى ، ببيروت - ثارت بمصر مناقشات صحفية حامية حول تعصب « الأقباط » ضد المسلمين ، وكان ذلك بمناسبة استقالة أحد موظفي وزارة الحقانية - شفيق بك منصور - بسبب ما قيل من اضطهاد وكيل الحقانية - بطرس غالي - له ، والذي اتهم بالتعصب لأبناء دينه ضد الموظفين المسلمين .. فكتب الأستاذ الإمام مقالاً في مجلة « ثمرات الفنون » البيروتية حذّر فيه من الانسياق في الطريق الطائفي غير القومي ، ولفت الأنظار إلى وجوب التفرقة بين من هو وطني ومن هو أجنبي ، ففي حالة الأجانب من الممكن أن نأخذ الكل بذنب البعض ، لجواز أن يكون موقفاً جماعياً لهذه الفئة من الأجانب .. أما بالنسبة لطائفة هي جزء من الوطن والمواطنين فإن أخطاء البعض منها لا تنسحب على هذه الطائفة كلها ، بل المسئولية فردية ، بصرف النظر عن عقيدة المخطئ الدينية ؛ لأن الرباط القومي والجامعة الوطنية تشمل الجميع .. كتب الرجل ليقول : « .. إن التحامل على شخص بعينه لا ينبغي أن يتخذ ذريعة للطعن في طائفة أو أمة أو ملة ، فإن ذلك اعتداء على غير معتد ، ومحاربة لغير محارب ، أو كما يقال : جهاد في غير عدو ، وهو مما ضرره أكثر من نفعه ، إن كان له نفع .. فليس من اللائق بأصحاب الجرائد أن يعمدوا إلى إحدى الطوائف المتوطنة في أرض واحدة فيشملوها بشئ من الطعن ، أو ينسبوها إلى شائن من العمل ، تعللاً بأن رجلاً أو رجالاً منها قد استهدفوا لذلك .. فإذا تنافرت الطوائف تشاغلت

كل منها بما يحط شأن الأخرى ، فكانت كل مساعيهم ضرراً على أوطانهم .. نعم « إن كانت الطائفة أو الأمة من قوم أجانب من البلاد ، متغلبين عليها بقوة قاهرة ، أو حيلة غادرة ، وكانت أعمال آحادها مبنية على أصول سنّها المتغلبون ، فيكون عمل الواحد كأنه صادر عن الجملة ـ كما في أعمال الإنكليز بمصر ـ جاز للناقد أن يأخذ الجماعة بإثم الواحد منهم ، ويستصرخ أبناء الوطن جميعاً لكشفهم عن بلاده ، واستخلاص الحق منهم لأربابه.. »[1] .

وهكذا انطلق الشيخ محمد عبده من منطلق قوميٍ في نظرته إلى الجماعة البشرية التي يتكون منها أبناء الوطن المصرى ، وحدّد نطاق العقائد الدينية بحيث لا تؤثر تأثيراً سلبياً على الروابط القومية التى تجعل من المصرى كل من يحرث أرض مصر ويتكلم لغتها ويضرب بجذوره الحضارية فى أعماق هذا البلد الذى يعيش فيه .

★★★

---

(١) المصدر السابق ج١ ص٦٥٣ ، ٦٥٤ .

أعماله الفكرية الكاملة

فى الصفحات التي قدمناها ـ فى هذا الملف ـ عن سيرة الأستاذ الإمام ، وكذلك عن فكره فى قضايا :

١ ـ الإصلاح الدينى .. وتحرير العقل من قيد الجمود والتقليد ..

٢ ـ والإسلام والسلطة الدينية .. وطبيعة السلطة ومؤسساتها فى المجتمع ..

٣ ـ ومن قبل عن الأسرة والمرأة .. وقضية تحرير نصف المجتمع من بقايا قيود عبودية الماضي ..

فى هذه الصفحات لعلَّ القارئ قد لحظ أن مصادرنا ومراجعنا قد اقتصرت على مصدر واحد هو (الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده) دون سواه .. وهذا أمر جديد بالنسبة لأية دراسة كتبت عن الأستاذ الإمام وفكره .

فى الماضى كان على من يريد دراسة سيرة الأستاذ الإمام وفكره أن يطرق باب العديد من المصادر والمراجع والدوريات والمظان ، تلك التى كانت تتوزع فيها وعليها آثاره الفكرية وأحداث حياته ومعالم سيرته . ولقد ظلّ هذا الواقع قائماً حتى قمنا مؤخراً بجمع كل آثاره الفكرية من شتى المصادر والمراجع والدوريات والمظان ثم بوّبناها تبويباً موضوعياً وتاريخياً ، بعد أن حققناها ، وحسمنا نسبة ما كان شائعاً منها بين الأستاذ الإمام وكل من جمال الدين

الأفغاني (١٨٣٨ ـ ١٨٩٧م) وعبد الله نديم (١٨٤٣ ـ ١٨٩٦م) ورشيد رضا (١٨٦٥ ـ ١٩٣٥م) وسعد زغلول (١٨٦٠ ـ ١٩٢٧م) ثم قدمنا بين يديها بدراسة مستفيضة عن حياته ، وعن فكره السياسي والاجتماعي .. فأصبح يسيراً على من يشاء البحث عن أي أمر يتعلَّق بفكر الأستاذ الإمام أن يجده مجموعاً ومحققاً في مكانه الطبيعي من أعماله الكاملة ، وبذلك حق لنا أن يكون مصدرنا الوحيد في هذه الصفحات هو تلك الأعمال ..

وإذا استطاعت الصفحات التي قدَّمناها هنا أن تلقي بعض الضوء على سيرة الإمام وبعض الجوانب من مذهبه وفكره ، فإننا نأمل أن تلقى السطور الآتية بعض الضوء على المعالم البارزة للمجلَّدات الستة التي أصبحت تضم الآن الأعمال الفكرية لهذا الإمام العظيم .

١ ـ يضم الجزء الأول ـ وهو عن (الكتابات السياسية) ـ الدراسة التي قدَّمنا بها لأعماله ، ثم كتاباته السياسية ، قبل قيام الثورة العرابية ، وأثناءها ، وفي السجن بعد فشل الثورة ، وفي المنفى ، وبعد العودة إلى أرض الوطن ..

٢ ـ ويضم الجزء الثاني ـ وهو عن « الكتابات الاجتماعية » ـ مقالاته المبكرة عن إصلاح المجتمع ، وكتاباته وفتاواه عن المرأة وتحريرها ، والزواج والطلاق ، وتعدد الزوجات ، والحجاب ، والمصاهرة .. الخ .. الخ .. ورحلته إلى أوروبا وما كتب عن سياحته فيها .. وتقريره وكتاباته عن إصلاح : القضاء والأوقاف .. ثم التراجم التي كتبها عن نفسه وعن عدد من الأعلام .. إلى جانب عدد من الرسائل الفكرية والإخوانية .. وأخيراً ما كتبه من مقدمات للكتب التي حققها ، أو تعليقات تكون ما يشبه المقالات على بعض نصوص هذه الكتب عندما تناولها بالشرح والتعليق .

٣ ـ ويضم الجزء الثالث ـ وهو عن « الإصلاح الفكرى والتربوى والإلهيات » ـ مقالاته المبكرة عن العلم والمعارف والتعليم .. ولائحة إصلاح التعليم العثمانى .. ولائحة إصلاح القطر السورى .. ومشروع إصلاح التربية فى مصر .. والمحاضرة التى ألقاها عن العلم والتعليم فى الإسلام ... ومقالاته وخطبه فى التربية والإصلاح اللغوى .. وما كتبه عن إصلاح الأزهر .. ثم ردوده الفكرية البالغة أعلى درجات الأهمية على كل من « هانوتو » و « فرح أنطون » حول « الإسلام والمسلمون والاستعمار » وحول « الاضطهاد والتسامح فى كل من النصرانية والإسلام » .. ثم « رسالة التوحيد » وأخيراً كتاباته عن فلسفة ابن رشد .. وعن التصوف والصوفية .. وعن بعض الفرق التى ظهرت فى حياة الإسلام والمسلمين فى العصر الحديث

٤ ـ ويضم الجزء الرابع ـ وهو « في تفسير القرآن » ـ : مقدمته فى التفسير، ومنهجه فيه .. ثم تفسير سورتى الفاتحة ، والبقرة .

٥ ـ ويضم الجزء الخامس ـ وهو « في تفسير القرآن » أيضاً ـ : تفسير سورة آل عمران ، والقسم الذي فسّره من سورة النساء . ثم تفسير الآيات المتفرقة التى عرض لها والتى مثلت مشكلات فكرية ودينية ، وأخيراً تفسير الجزء الثلاثين من أجزاء القرآن الكريم ـ « جزء عم » .

٦ ـ أما الجزء السادس والأخير ـ وهو عن « الفتاوى والفهارس » : فيضم الفتاوى التى أصدرها الأستاذ الإمام أثناء توليه منصب مفتي الديار المصرية ، وهي التي ظلت حبيسة سجلات « نظارة الحقانية » ـ وزارة العدل ـ حتى تحقيقنا لها وطبعها فى أعماله الكاملة .. وذلك إلى جانب الفهارس العامة التى تضم :

أ ـ فهرساً للأفكار الرئيسية التى جاءت فى أجزاء الأعمال الكاملة .

ب ـ فهرساً للأعلام .

ج ـ فهرساً للبلدان .

د ـ فهرساً للفرق والجمعيات والأحزاب .

وأخيراً ..

فإذا نجحت هذه الصفحات فى إلقاء بعض الأضواء على ذلك الإمام العظيم : حياته .. وأفكاره .. وأعماله .. كان ذلك توفيقاً نحمد عليه واهب التوفيق .. فهو نعم المولى ونعم النصير .

***

المراجع

١ ـ (الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده) دراسة وتحقيق : دكتور محمد عمارة . طبعة المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت ١٩٧٢م .

٢ ـ (تفسير الطبرى) طبعة دار المعارف . القاهرة .

٣ ـ (تفسير الجلالين) طبعة دار الشعب ، القاهرة ١٩٧٠م .

٤ ـ (تفسير البيضاوى) طبعة القاهرة ١٩٢٦م .

٥ ـ (تفسير النسفى) طبعة القاهرة ١٣٤٤ هـ .

٦ ـ (كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون) لحاجى خليفة . طبعة إستانبول ١٩٤١م .

٧ ـ (لسان العرب) لابن منظور . طبعة بولاق . القاهرة .

٨ ـ (محمد عبده) لعباس محمود العقاد . طبعة أعلام العرب .

٩ ـ (الإسلام وأصول الحكم) لعلى عبد الرازق . طبعة المؤسسة العربية للدراسات والنشر . بيروت ١٩٧٢م .

★★★

الفهـــرس

الموضوع | الصفحة

هذه الطبعة الجديدة ٥
إهداء ٩
كلمات ١١
تمهيد ١٣
المساواة بين الرجل والمرأة ١٩
الطلاق بين الإطلاق والتقييد ٢٩
تعدد الزوجات ٣٧
١ ـ العلاقات الزوجية والمساواة بين الرجال والنساء ٤٥
فوائد المصاهرة ٤٧
حاجة الإنسان إلى الزواج ٥٣
المساواة بين الرجال والنساء ٥٩
القوامة : تقسيم العمل ٦٩
ميثاق الفطرة بين الزوجين ٧٥
احترام حرية المرأة في اختيار الزوج ٨١
٢ ـ تقييد حق الطلاق ٨٩
التحكيم : واجب للدولة والمجتمع ٩١
سلطة القاضي والحكمين ٩٧
يمين الإيلاء ٩٩
إرجاع الزوج مطلقته ١٠٣
النهي عن الإضرار بالنساء ١٠٥

٣ ـ تعدد الزوجات ـــــــ ١١١

فتوى فى تعدد الزوجات ـــــــ ١١٣

تفسير آية التعدد ـــــــ ١٢١

حكم الشريعة فى تعدد الزوجات ـــــــ ١٢٩

خاتمة ـــــــ ١٣٩

٤ ـ ملف عن حياة الإمام محمد عبده ـــــــ ١٤١

سيرة حياته ـــــــ ١٤٣

الإصلاح الدينى ـــــــ ١٦٣

الإسلام والسلطة الدينية ـــــــ ١٧١

أعماله الفكرية الكاملة ـــــــ ١٨١

المراجع ـــــــ ١٨٥

الفهرس ـــــــ ١٨٦

الإسلام والمرأة

في رأى الإمام محمد عبده

إنه أمر غريب وعجيب ؟!

فالجدل الدائر حول حقوق المرأة وحرياتها ، وعلاقة ذلك بالإسلام . . يلجأ القائمون به جميعًا - المؤيدون والمعارضون - إلى فكر العصور الوسطى والمظلمة ، وآراء فقهاء عصر المماليك والأتراك العثمانيين ؟ !

وكأن هذا الفكر لم يعرف حركة التجديد العملاقة التى اجتهدت لتجعل من فكرنا الإسلامى الحديث :

الامتداد المتطور لعصر الإبداع والازدهار ! . .

ومن هنا تأتى أهمية هذا الكتاب ، الذى يقدم رأي طليعة المجتهدين الإسلاميين فى عصرنا الحديث :

الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ... فى موقف الإسلام من قضايا :

١ - المساواة بين المرأة والرجل . .

٢ - وتقييد الطلاق

٣ - ومنع تعدد الزوجات ؟! .

المؤلف

دار الرشاد

١٥٠